

تفسير سورة الاعراف

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصِّ ﴿١﴾ كَسَبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِشُبُهَانٍ بِهِ، وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا

مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مَن دُونِهِ أُولَئِكَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وبسطه، واختلاف الناس فيه. ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا كتاب أنزل إليك، أي: من ربك ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ قال مجاهد، وقتادة والسدي: شك منه. وقيل: لا تخرج به في إيلاغه والإنذار به، وأصبر كما صبر أولو العزم من الرسل؛ ولهذا قال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ أي: أنزل إليك لتنذر به الكافرين ﴿وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: اقتضوا آثار النبي الأمام الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مَن دُونَهُ أُولَئِكَ﴾ أي: لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره. ﴿فَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَكْفَرُ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَإِن نَّطَعُ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ بِطَوْلِكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

﴿وَكُم مِّن قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا بِمَا عَصَيْتُمْ أَوْ هُمْ قَاتِلُونَ﴾ ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذِ جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿فَلَنَقْضَنَّ عَنْهُمْ بَعْضَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَكُم مِّن قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولا بذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَجَاءَ بِالذِّنِّ مَسْحُورًا مِّنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيُّ مَن قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِّهِيَ خَاوِبَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَسْرِ مَظْلُومٌ وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ﴾ [الحج: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَكُم أَهْلَكْنَا مِّن قَرِيبٍ بَطَرْتُمْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ يَكُنْ مَن يَنْبَغِيهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

وقوله: ﴿فَجَاءَهَا بِآيَاتِنَا أَوْ هُمْ قَاتِلُونَ﴾ أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَاتِلُونَ﴾ من القليلة، وهي: الاستراحة وسط النهار. وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو، كما قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ. أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَعْفَىٰ وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ [الاعراف: ٩٧، ٩٨]، وقال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ﴾ [النحل: ٢٥ - ٢٧].

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانُهُمْ إِذِ جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا. كما قال تعالى: ﴿وَكُم فَصَمْنَا مِّن قَرِيبٍ كَانَتْ ظَالِمَةً

وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّمَا إِذَا هُمْ مِنهَا يَرْكُضُونَ . لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاحِكِكُمْ لَهْفَكُمُ تُسْأَلُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . لَمَّا زَالَ يَوْمَ تَفُكُ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جِئْتَهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿ [الانبيا: ١١ - ١٥] .

قال ابن جرير: في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ . ثم روى عن أبي سنان، عن عبد الملك بن ميسرة الزرادي قال: قال عبد الله بن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «ما هلك قوم حتى يُعذروا من أنفسهم». قال: قلت لعبد الملك: كيف يكون ذلك؟ قال: فقرأ هذه الآية: «فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَمْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» (١).

وقوله: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية، كقوله: ﴿وَيَوْمَ يَنبَأُهُمُ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]، فالربُّ تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما اجابوا رسله فيما أرسل به، ويسأل الرسل أيضا عن بلاغ رسالاته؛ ولهذا قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَنَسْتَلَّنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال: عما بلغوا. وروى ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام يسأل عن الرجل، والرجل يسأل عن اهله، والمرأة تسأل عن بيت زوجها، والعبد يسأل عن مال سيده». ثم قرأ: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَنَسْتَلَّنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾. وهذا الحديث مُخْرَجٌ في الصحيحين بدون هذه الزيادة. وقال ابن عباس في قوله: ﴿فَلَنَقْصِنَّ عَلَيْهِمْ بِعُظْمٍ وَنَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾: يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون، يعني: أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا، من قليل وكثير، وجليل وحقيق؛ لأنه تعالى شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا نَحْنُ بِهَا بِعَالِمِينَ وَمَا يَنْفُكُ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الانعام: ٥٩].

﴿وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٣﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا يَسَاءِلَتْنَا بِظُلْمٍ ﴿١٠٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَالْوَزْنَ﴾ أي: للأعمال يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أي: لا يظلم تعالى أحدا، كما قال تعالى: ﴿وَتَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنْ بِهَا حَاسِبِينَ﴾ [الانبيا: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ سَتْ حَسَنَةً نَّضَعْنَا بِهَا وَبُوتَ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ . فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ . نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦ - ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نَفِخُ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ . فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٣].

فصل: والذي يوضع في الميزان يوم القيامة، قيل: الأعمال وإن كانت أعراضاً، إلا أن الله تعالى يقبلها يوم القيامة أجساماً. قال الفيض: يروى نحو هذا عن ابن عباس، كما جاء في الصحيح من أن البقرة، و«الآن عمران» يأتیان يوم القيامة كأنهما ضحاستان - أو: غيَّبان - أو فرقان من طير صَوَّافٍ (٢).

(١) الطبري (١٤٢٢٣). وذكر السيوطي (٣ / ٦٧) رواية ابن أبي حاتم بنحوه، وقد جزم الطبري هنا بصحة ما رواه صحيحاً، فإن عبد الملك بن ميسرة الزرادي يروي عن صفار الصحابة، ولا تراه أدرك ابن مسعود. عبد الملك مات بعد سنة ١١٠، وابن مسعود مات سنة ٣٢ أو ٣٣.

(٢) هو جزء من حديث رواه أحمد وسلم، من حديث أبي أمامة الباهلي، وقد مضى عند فضل سورة البقرة، ومضى =

وكذلك في الصحيح قصة القرآن ، وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرتُ ليلك ، وأظلماتُ نهارك(١). وفي حديث البراء، في قصة سؤال القبر: «يأتي المؤمن شاباً حسن اللون طيب الريح، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عمك الصالح». وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق.

وقيل: يوزن كتاب الأعمال، كما جاء في حديث البطاقة، في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة نعمة وتسمعون سجلاً، كل سجل مدّ البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: «لا إله إلا الله» فيقول: يارب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تظلم. فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان. قال رسول الله ﷺ: «فطاشت السجلات، وقُلت البطاقة». رواه الترمذي بنحو من هذا ، وصححه.

وقيل: يوزن صاحب العمل، كما في الحديث: «يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين، فلا يزن عند الله جناح بعوضة». ثم قرأ: «فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً» [الكهف: ١٠٥]. وفي مناقب عبد الله بن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «أتعجبون من دقة ساقه ! والذي نفسى بيده لهما في الميزان أثقل من أحد» .

وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة تورن الأعمال، وتارة تورن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾

يقول تعالى ممثنا على عبده فيما مكن لهم من جعل الأرض قراراً، وجعل فيها رواسي وأنهاراً، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً، وأباح لهم منافعها، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معيش، أي: مكاسب وأسباباً يتجرون فيها، ويتسبون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك، كما قال: «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظَلُومٌ كَفَّارٌ» [إبراهيم: ٣٤].

وقد قرأ الجميع: ﴿مَعْيِشٌ﴾ بلا همز، إلا عبد الرحمن بن هرمز الأعرج فإنه همزها. والصواب الذي عليه الاكثرون بلا همز؛ لأن معيش جمع معيشة، من «عاش يعيش عيشاً ومعيشة» أصلها «مَعْيِشَةٌ» فاستقلت الكسرة على الياء، فنقلت إلى العين فصارت مَعْيِشَةٌ، فلما جُمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستئصال، فقيل: معاش. وورثه مَعَايِلٌ؛ لأن الياء أصلية في الكلمة. بخلاف مدائن وصحائف وبصائر، جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من: مدن وصحف وأبصر، فإن الياء فيها رائدة، ولهذا تجمع على فعائل، وتهمز لذلك، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾

بنيه تعالى بنى آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، وبين لهم عدوهم إبليس، وما هو

= نحوه أيضاً من حديث برهدة ، عند أحمد .
(١) ليس في واحد من الصحيحين ، بل رواه - بنحوه - أحمد في المسند (٥ / ٣٥٢ حلى) وابن ماجه (٣٧٨١) كلاًهما من حديث برهدة . وقال البوصيري في روايته : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » . ومعناه ثابت ضمن حديث برهدة الماضي عند فضل سورة البقرة .

مَنْطَوْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَسَدِ لَهُمْ وَلَا يَلِيهِمْ آدَمُ، لِيَحْذَرُوهُ وَلَا يَتَّبِعُوا طَرِيقَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. إِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨ ، ٢٩] ، وذلك أنه تعالى لما خلق آدم، عليه السلام، بيده من طين لآرب، وصوره بشراً سوياً ، ونفخ فيه من روحه، أمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الرب تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا، إلا إبليس لم يكن من الساجدين. وقد تقدم الكلام على إبليس في أول «سورة البقرة»^(١). وهذا الذي قرنناه هو اختيار ابن جرير: أن المراد بذلك كله آدم، عليه السلام.

وعن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ قال: خَلِقُوا فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَصَوَّرُوا فِي أَرْحَامِ النِّسَاءِ. رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرطهما ، ولم يخرجاه . ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضاً: أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم: الذرية. وقال الربيع بن أنس، والسدي، وقتادة، والضحاك في هذه الآية ، أي: خلقنا آدم ثم صورنا الذرية. وهذا فيه نظر؛ لأنه قال بعده: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، فدل على أن المراد بذلك آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر، كما يقول تعالى لبي ابن إسرائيل الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ: ﴿وَوَضَعْنَا عَلَى كُفْرِهِمُ أَلْهَابًا فَالْتَمِسْ فِيهَا نَارًا وَابْتِغِ الْوَيْدَانَ فَجْعَلْنَاهُمْ لِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، والمراد: أبائهم الذين كانوا في زمان موسى، ولكن لما كان ذلك منتهى على الآباء - الذين هم أصل - صار كأنه واقع على الأبناء. وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ الآية [المؤمنون: ١٢]، فإن المراد منه آدم المخلوق من سلاله من طين ، وذريته مخلوقون من نطفة، وصح هذا لأن المراد من ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ الجنس، لا معيناً، والله أعلم.

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْبُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾

قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْبُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: « لا » هنا رائدة. وقال بعضهم: ريدت لتأكيد الجحد، كقول الشاعر:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله

فأدخل «إن»، وهي للنفي، على «ما» النافية؛ لتأكيد النفي، قالوا: وكذلك مهنا: ﴿مَا مَنَّكَ أَنْ لَا تَسْبُدَ﴾ مع تقدم قوله: ﴿ثُمَّ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾. حكاهما ابن جرير ودهما، واختار أن «منك» مضمّن معنى فعل آخر تقديره: ما أخرجك والزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك، ونحو هذا. وهذا القول قوي حسن، والله أعلم.

وقول إبليس لعنه الله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ - من العنبر الذي هو أكبر من الذهب ! كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول ! يعنى لعنه الله: وأنا خير منه، فكيف تأمرنى بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه، بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقت منه، وهو الطين ! فنظر اللعين إلى أصل العنبر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [مر: ٧٢]، فشذ من بين الملائكة بترك السجود؛ فلهذا أبليس من الرحمة، أي: أوبس من الرحمة، فأخطأ قبحه الله في قياسه ودعواه أن

النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والائانة والثبوت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيح والسرعة؛ ولهذا خان إبليسَ عنصره، ونفع آدمَ عنصره في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة. وفي صحيح مسلم، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخُلِقَ إبليس من نار، وخُلِقَ آدم من نار، وخُلِقَ من طين» قال: قاس إبليس، وهو أول من قاس. إسناده صحيح. وروى عن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عُدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس. وإسناده صحيح أيضاً.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعُثُونَ﴾
قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قدرى كوني: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أى: بسبب عصيانك لأمري، وخروجك عن طاعتي، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾. قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً على المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى. ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أى: الذليلين الحقييرين، معاملة له بتقيض قصده، مكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين، فقال: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعُثُونَ. قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾، أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة المشيئة التي لا تخالف ولا تتماح، ولا مُعَقَّبَ لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ثُمَّ لَا يَبْعَثُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾

يخبر تعالى أنه لما أنذر إبليس ﴿إِنِّي يَوْمَ يَبْعَثُونَ﴾، وامتنق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: ﴿فِيمَا آغَاوَيْتِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى: كما آغويتني. قال ابن عباس: كما أضللتني. وقال غيره: كما اهلكتني لأقعدن لعبادك - الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه - على ﴿صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى: طريق الحق وسبيل النجاة، فلاضلتهم عنها لثلاثي يبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي. وقال بعض النحاة: الباء هنا قسمة، كأنه يقول: فبإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم. قال مجاهد: ﴿صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يعنى: الحق. وقال عون بن عبد الله: يعنى طريق مكة. قال ابن جرير: والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك.

قلت: لما روى الإمام أحمد عن سيرة بن أبي فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟». قال: «فعضاه وأسلم». قال: «وقعد له بطريق الهجرة»، فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماحك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول؟ فعضاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، وهو جهاد النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل، فتتضح المرأة ويقسم المال؟». قال: «فعضاه، وجاهد». وقال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن قُتل كان حقاً على الله، أن يدخله الجنة، وإن

غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة، أو وقَّصته دابة كان حقا على الله أن يدخله الجنة» (١).
 وقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: اشككهم في آخرتهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أرغبهم في دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾: أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَنْ شَمَالِهِمْ﴾: أشهى لهم المعاصي. وقال قتادة: اتاهم ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من أمر الدنيا فزيتها لهم ودعاهم إليها و ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ من قبل حسناتهم بطأهم عنها ﴿وَعَنْ شَمَالِهِمْ﴾: زين لهم السيئات والمعاصي، ودعاهم إليها، وأمرهم بها. أتاك يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله. وقال مجاهد: من بين أيديهم وعن إيمانهم من حيث يبصرون، ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون. واختار ابن جرير أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصددهم عنه، والشر يحسنه لهم. وقال ابن عباس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ قال: موحدين. وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ فَتَوَلَّوْهُ إِلا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا لِيُفْتِنَهُمْ بِالْآخِرَةِ مَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبا: ٢٠، ٢١].

ولهذا ورد في الحديث الاستماعة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، كما روى البزار عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأعلى ومالي، اللهم استر عورتى، وأمن روعاتى، واحفظنى من بين يدي ومن خلفى، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقى، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتى». تفرد به البزار، وحسنه. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأعلى ومالي، اللهم استر عورتى، وأمن روعاتى، اللهم احفظنى من بين يدي ومن خلفى، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقى، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى». قال وكيع: «من تحتى»: يعنى الحسب. ورواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، وقال الحاكم: صحيح الإسناد (٢).

﴿قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا وَمِمَّا مَذْمُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

أكد تعالى عليه اللعنة والطرْد والإبعاد والنفي عن محل الملا الأعلى بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْمُورًا﴾. قال ابن جرير: أما المذموم فهو المعبى، والذام غير مشدد: العيب. يقال: «ذامه يذامه ذاماً فهو مذموم». ويتركون الهمز فيقولون: «ذمته أذمه ذبماً وذاماً»، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم. قال: والمذخور: المَقْصَى. وهو المبعد المطرود. وقال ابن عباس: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْمُورًا﴾: صغيراً مقبلاً.

وقوله تعالى: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كقولته تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَوْفُورًا. وَاسْتَغْرَزَ مِنَ النَّارِ بِسَوْتِكُمْ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارَكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ

(١) المسند (١٦٠٢٤)، وكذلك رواه البخارى فى التاريخ الكبير (٢ / ٢ / ١٨٨، ١٨٩) وأشار إليه الحافظ فى الإصابة (٦٤ / ٣) ونسبه للنسائى «بإسناد حسن، إلا أن فيه اختلافاً». وذكره الطبرى فى التفسير (١٤٣٦٤) بدون إسناد.

و «الاطرق»: جمع طريق، مثل «يمين وأيمن».

(٢) المسند (٤٧٨٥). وذكره الحافظ ابن كثير فى التاريخ أيضاً (١ / ٦٨) وخرجه كهذا التخرىج.

وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُمْ وَمَا يَدْعُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكُنَّ بِرَبِّكَ وَكَيْلًا ﴿ الإسراء: ٦٣ - ٦٥ ﴾ .

﴿ وَيَتَادَمُّ اسْتَكْنَأْتِ وَرَوَيْكَ أَلْبَجَّةَ فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ يَشْتَمًا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ تَوَسَّسَ لَهَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهَا مَا مَرَىٰ عَنْهَا مِنْ مَنَوعٍ لَهَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ ﴿٢١﴾ ﴾

يذكر تعالى انه اباح لأدم، عليه السلام، ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة. وقد تقدم الكلام على ذلك في «سورة البقرة»، فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسمى في المكر والخديعة والوسوسة ليلبا ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن، وقال كذبا وافتراء : مانهاكما ربكما عن اكل هذه الشجرة إلا لتلا تكونا ملكين خالدين ههنا ، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلك ، كقوله : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْغُلَّةِ الْمَلَائِكَةِ لِأَتِي ﴾ [طه: ١٢٠] أي : لتلا تكونا ملكين، كقوله : ﴿ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا ﴾ [النساء: ١٧٦] ، أي : لتلا تضلوا ، ﴿ وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ نُورًا أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل: ١٥] أي : لتلا تميد بكم . وكان ابن عباس ويحيى بن أبي كثير يقرآن : ﴿ إِنْ أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ ﴾ بكسر اللام . وقرأ الجمهور بفتحها . ﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ أي : حلف لهما بالله : ﴿ إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ ﴾ ، فإني من قبلكما ههنا، وأعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين، أي : حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله . وكان بعض أهل العلم يقول : «من خادعنا بالله خدعنا» .

﴿ فَلَدَّنَهُمَا يَفْرُورًا فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطُوفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَرَقِ الْجَنَّةِ وَقَادَّتَهُمَا رَبَّهُمَا أَوْ أَنَّهُمَا عَنْ يَلِكُمَا الشَّجَرَةَ وَأَقَلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ يُبِينُ ﴿٢٢﴾ فَالَارَبْنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَا وَإِنْ لَرَبِّ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

قال مجاهد: جعلنا يخصفان عليهما من ورق الجنة. وقال الضحاك بن مزاحم في قوله : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ : هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه .

﴿ قَالَ أَهبطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا عَجْوُونَ فِيهَا سَمْوُونٌ وَمِنْهَا تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قيل : المراد بالخطاب ب ﴿ أَهبطُوا ﴾ : آدم، وحواء، وإبليس، والحية . ومنهم من لم يذكر الحية، والله أعلم . والعمدة في العداوة آدم وإبليس ، ولهذا قال تعالى في سورة «طه» ، قال : ﴿ أَهبطْنَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ الآية [رقم ١٢٣] ، وحواء تبع لأدم . والحية - إن كان ذكرها صحيحا - فهي تبع لإبليس . وقد ذكر المفسرون الاماكن التي هبط فيها كل منهم، ويرجع حاصل تلك الاخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها . ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم، أو دنياهم، لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ .

وقوله : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي : قرار وأعمار مضرورية إلى آجال معلومة، قد

جرى بها القلم، واحصاها القدر، وسطرت في الكتاب الاول:

وقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَفِيهَا تُخْرَجُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥] ، يخبر تعالى انه جعل الارض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم المعاد، الذي يجمع الله فيه الاولين والآخرين، ويجازى كلا بعمله.

﴿يَبْنَىٰٓءَآدَمَ فَاٰزَلْنَا عَلٰٓيْكُمْ لِيَاسًا يُّوْرِي سَوَءَ تِكْمٍ وَّرِيْسًا وَّلِيَاسُ التَّقْوٰى ذٰلِكَ خَيْرٌ ذٰلِكَ مِّنْ اٰيٰتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ ﴿٢٦﴾﴾

يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش . فاللباس - المذكور ههنا : لستر العورات - وهى السوآت - والرياش والريش: هو ما يتجمل به ظاهراً، فالاول من الضروريات، والريش من التكميلات والزيادات. قال ابن جرير: «الرياش» فى كلام العرب: الاثاث، وما ظهر من الثياب. وقال ابن عباس - وحكاى البخارى عنه: الريش: المال. وكذا قال مجاهد، وعروة بن الزبير، وغيرهم. وعن ابن عباس: «الرياش»: اللباس، والعيش، والتعيم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم: «الرياش»: الجمال. وروى الإمام أحمد عن أبى العلاء الشامى قال: لبس أبوإمامة ثوباً جديداً، فلما بلغ ترقوته قال: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى، وأتجمل به فى حياتى. ثم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «من استجد ثوباً فلبسه، فقال حين يبلغ ترقوته: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى، وأتجمل به فى حياتى، ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به، كان فى ذمة الله، وفى جوار الله، وفى كنف الله حيا وميتا. رواه الترمذى، وابن ماجه، وأبو العلاء الشامى: لا يعرف إلا بهذا الحديث، ولكن لم يجرّحه أحد، والله أعلم (١). وعن أبى مطر؛ انه رأى علياً أتى غلاماً حدثاً، فاشتري منه قميصاً بثلاثة دراهم، ولبسه ما بين الرسفين إلى الكعبين، يقول ولبسه: الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس، وأوارى به عورتى. فقيل: هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن النبى ﷺ؟ قال: هذا شيء سمعته من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة: «الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس، وأوارى به عورتى». رواه الإمام أحمد (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوٰى ذٰلِكَ خَيْرٌ﴾: قرأ بعضهم: «ولباس التقوى»، بالنصب. وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء، و «ذٰلِكَ خَيْرٌ» خبره. واختلف المفسرون فى معناه، فقال عكرمة: يقال هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة. رواه ابن أبى حاتم. وقال قتادة، وابن جرير: «ولباس التقوى»: الإيمان. وقال ابن عباس: العمل الصالح. وعن ابن عباس: هو السمى الحسن فى الوجه. وعن عروة بن الزبير: «لباس التقوى»: خشية الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم: «ولباس التقوى»: يتقى الله، فيوارى عورته، فذاك لباس التقوى. وكلها متقاربة.

﴿يَبْنَىٰٓءَآدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَءَ تِبْمًا اِنَّكُمْ بَرَكْتُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطٰنَ اَوْلِيَاۗءَ لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى محذراً بنى آدم من إبليس وقبيله، مبيناً لهم عداوته القديمة لابی البشر آدم، عليه السلام، فى سعيه فى إخراجه من الجنة التى هى دار النعيم، إلى دار التعب والعناء، والتسبب فى هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوهُ وَفَرَّتْهُ أُولِيَاءُ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَةً نَا وَاللَّهِ أَمْرًا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَنْقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾

قال مجاهد: كان المشركون يظوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا. فتضع المرأة على قُبْلِهَا النَّسْعَةَ (١)، أو الشيء، وتقول:

اليوم يبدو كُلُّهُ أو بعضُهُ وما بَدَأَ منه فلا أحلُّهُ

فانزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَةً﴾ الآية . قلت: كانت العرب - ماعدا قريشاً - لا يظوفون بالبيت فى ثيابهم التى لبسوها، يتأولون فى ذلك أنهم لا يظوفون فى ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش - وهم الحُمس - يظوفون فى ثيابهم، ومن أعاره أحمسى ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يملكه أحد، فمن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسى ثوباً، طاف عرياناً. وربما كانت امرأة فتظوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئاً يستره بعض الشيء وتقول:

اليوم يبدو كُلُّهُ أو بعضُهُ وما بَدَأَ منه فلا أحلُّهُ

وأكثر ما كان النساء يظفن عراة بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعه من تلقاه أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم، ويعتدون أن فعل آباءهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فانكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَةً وَاللَّهِ أَمْرًا بِهَا﴾، فقال تعالى رداً عليهم: ﴿قُلْ أَي: قل يا محمد لمن ادعى ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أَي: هذا الذى تصنعونه فاحشة منكورة، والله لا يأمر بمثل ذلك ﴿أَنْقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَي: اتُسَبِّدُونَ إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته.

وقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أَي: بالعدل والاستقامة ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أَي: أمركم بالاستقامة فى عبادته فى محالها، وهى متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله، وجاؤوا به من الشرائع، وبالإخلاص له فى عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صواباً موافقاً للشرعية، وأن يكون خالصاً من الشرك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ اختلف فى معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فقال مجاهد: يحييكم بعد موتكم. وقال الحسن البصرى: كما بدأكم فى الدنيا،

(١) « النَّسْعَةُ » - بكسر النون وسكون السين : القطعة من « النسج » ، وهو سير يضفر على هيئة أحنه النعال .

كذلك تعودون يوم القيامة أحياء . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كما بدأكم أولاً ، كذلك يعيدكم آخراً . واختار هذا القول ابن جرير ، وأيده بما رواه عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة ، فقال : «يا أيها الناس ، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عرأة غرلاً» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعِنْدَنَا إِتْنَا كَمَا فَاعِلِينَ﴾ [الانباء: ١٠٤] . وهذا الحديث مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحِينَ (١) .

وعن مجاهد : ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال : يعث المسلم مسلماً ، والكافر كافراً . وقال ابن عباس قوله : ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . قَرِيبًا هَذِي وَقَرِيبًا حَقُّ عَلَيْهِمُ الضَّلَاةُ﴾ قال : إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً ، كما قال : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التناين: ٢] ، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم ، مؤمناً وكافراً .

قلت : ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري : «فوالذي لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو : ذراع - فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو : ذراع - فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخل الجنة» . وروى البَيهَقِيُّ عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : «إن العبد ليعمل - فيما يرى الناس - بعمل أهل الجنة ، وإنه من أهل النار . وإنه ليعمل - فيما يرى الناس - بعمل أهل النار ، وهو من أهل الجنة ، وإنما الأعمال بالخواتيم» . هذا قطعة من حديث رواه البخاري . وروى ابن جرير عن جابر ، عن النبي ﷺ أنه قال : «تَبِعْتُ كُلَّ نَفْسٍ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ» . رواه مسلم وابن ماجه ولفظه : «يبعث كل عبد على ما مات عليه» . وعن ابن عباس مثله .

قلت : ولا بد من الجمع بين هذا القول - إن كان هو المراد من الآية - وبين قوله تعالى : ﴿فَأَتِمُّوا صُنُوعَكُمْ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] ، وما جاء في الصحيحين ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» . وفي صحيح مسلم ، عن عياض بن حمار ، قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم» الحديث (٢) . ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر ، في ثاني الحال ، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده ، والعلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك ، وجعله في غرائزهم وفطرتهم ، ومع هذا قدر أن منهم شقياً ومنهم سعيداً : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التناين: ٢] ، وفي الحديث : «كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها» (٣) . وَقَدَرُ اللَّهِ نَافِذٌ فِي بَرِيئِهِ ، فَإِنَّهُ هُوَ «الَّذِي قَدَرُ فَهْدَى» [الاحلى: ١٣] ، و«الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» [طه: ٥٠] ، وفي الصحيحين : «فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة» (٤) ؛

(١) الطبري (١٤٥٠٢) . ورواه أحمد في المسند - مطولاً ومختصراً (١٩٥٠ ، ٢٠٢٧ ، ٢٠٩٦ ، ٢٢٨١ ، ٢٢٨٢)
والبخاري (٨ / ٣٣٢ ، ١١ / ٣٣١ فتح) . و «القول» - بضم الغين المعجمة وسكون الراء : جمع «أغرل» ، وهو الأتلف الذي لم يخفق .

(٢) مضي كاملاً عند الآية ١٩ من سورة المائدة .

(٣) من حديث رواه مسلم (١ / ٨٠) ، من حديث أبي مالك الأشعري .

(٤) انظر البخاري - بنحوه - من حديث علي (٣ / ١٧٩ فتح) .

ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، ثم علل ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّقْتَدُونَ﴾. قال ابن جرير: وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عناداً منه لربه فيها؛ لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه مهتد، وفريق الهدى فرق. وقد فرق الله تعالى بين اسمائهما وأحكامهما في هذه الآية.

﴿يَبْقَىٰ مَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

هذه الآية الكريمة ردٌ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراً، كما رواه مسلم والنسائي وابن جرير - واللفظ له - عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال والنساء: الرجال بالنهار، والنساء بالليل. وكانت المرأة تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدأ منه فلا أحله

فقال الله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. وقال ابن عباس: الزينة: اللباس، وهو ما يوارى السواة، وما سوى ذلك من جيد البزء والمتاع - فأمروا أن يأخذوا ريتهم عند كل مسجد. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وقناة، وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها: أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة.

ولهذه الآية، وما ورد في معناها من السنة، يستحب التجميل عند الصلاة - ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد - والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك. ومن أفضل اللباس البياض، كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم، وإن خير أكحالكم الإثمد، فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر». هذا حديث جيد الإسناد، رجاله على شرط مسلم. ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح (١). وللإمام أحمد أيضاً، وأهل السنن بإسناد جيد، عن سمرّة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالثياب البياض فالبسوها؛ فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم».

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قال بعض السلف: جمع الله الطيب كله في نصف آية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾. وقال البخاري: قال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: أحل الله الأكل والشرب، ما لم يكن سرفاً أو مخيلة. إسناده صحيح. وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، من غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده». ورواه النسائي وابن ماجه، بنحوه (٢). وروى الإمام أحمد عن المقدم بن معد يكره الكندي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملا ابن آدم وعاءاً شراً من بطن، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان فاعلاً لا محالة، فثلث طعام، وثلث شراب،

(١) السند (٢٠٤٧).

(٢) السند (٦٧٠٨). وقد مضى بعضه وتخريجه عند الآيات: ٣٧ - ٣٩ من سورة النساء.

وثالث لَنَفْسِهِ . ورواه النسائي والترمذى، وقال الترمذى: حسن - وفي نسخة: حسن صحيح (١) .

وقال السدى: كان الذين يطوفون بالبيت عراة، يحرمون عليهم الودك ما أقاموا في الموسم؛ فقال الله تعالى لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول: لا تسرفوا في التحريم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ يقول: لا تاكلوا حراماً، ذلك الإسراف . وقال ابن جرير: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول الله تعالى: إن الله لا يحب المعتدين حذنه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحلّ، بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلل ما أحلّ، ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذى أمر به .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى رداً على من حرم شيئاً من المأكّل والمشرب، والملابس، من تلقاء نفسه، من غير شرع من الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بأرائهم الفاسدة وابتداعهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: هى مخلوقة لمن آمن بالله وعنده فى الحياة الدنيا - وإن شركهم فيها الكفار حباً فى الدنيا - فهى لهم خاصة يوم القيامة، لا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين .

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

روى الإمام أحمد عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أعير من الله، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله .» أخرجاه فى الصحيحين، وتقدم الكلام فى سورة الانعام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن (٢) .

وقوله: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال السدى: أما الإثم فالمعصية، والبغى أن تبغى على الناس بغير الحق . وقال مجاهد: الإثم المعاصى كلها، وأخبر أن الباغى بغية كائن على نفسه . وحاصل ما فسّر به الإثم: أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغى: هو التعدى إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا .

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: تجعلوا له شريكا فى عبادته، وأن تقولوا عليه من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك، مما لا علم لكم به كما قال تعالى: ﴿لَا جِبْتُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْلِيَانِ وَأَجْبُوا قَوْلَ الزُّورِ . حَتَّىٰ يَخْطَأَ إِلَيْهِ غَيْرُ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١] .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ يَبْقَى ءَادَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ بِقُصُورٍ عَلَيْكُمْ يُقَالُ قَبْلُ فَمِنْ أُنْقِمْ وَأَصْلَحْ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(٢) مضى أطول من هذا عند الآية : ١٦٥ من سورة النساء مخرجا .

(١) المسند (١٧٢٥٢) .

يقول تعالى : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي : قَرْنٌ وَجِيلٌ ﴿أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ أي : ميقاتهم المقدر لهم ﴿لَا يَسْتَخْرُونَ سَاعَةً﴾ أي : عن ذلك ﴿وَلَا يَسْتَعِدُّونَ﴾ .

ثم انذر تعالى بنى آدم أنه سيعث إليهم رسلا ، يقصون عليهم آياته ، وبشر وحذر ، فقال : ﴿لَمَنْ اتَّقَنِي وَأَمْلَحَ﴾ أي : ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي : كذبت بها قلوبهم ، واستكبروا عن العمل بها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي : ماكنون فيها مكثا مخلداً .

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكُفْبِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا كَفَرُوا قَالُوا لَا بَأْسَ بِنُحُوتِنَا وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ﴾

يقول تعالى : ﴿لَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي : لا احد اظلم من افترى الكذب على الله ، او كذب بآيات الله المنزلة . ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكُفْبِ﴾ : اختلف المفسرون في معناه : ابن عباس يقول : نصيبهم من الاعمال ، من عمل خيراً جزى به ، ومن عمل شراً جزى به . وقال مجاهد : ما وعدوا به من خير وشر . وكذا قال قتادة ، والضحاك ، وغير واحد . واختاره ابن جرير . وقال محمد بن كعب القرظي : عمله ورزقه وعمره . وكذا قال الربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم . وهذا القول قوي في المعنى ، والسياق يدل عليه ، وهو قوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَهُمْ﴾ ويصير المعنى في هذه الآية كما في قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلَحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس : ٦٩ ، ٧٠] ، وقوله : ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ ۗ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْرِبُ لَهُمُ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان : ٢٣ ، ٢٤] .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي : يخبر تعالى ان الملائكة إذا توفت المشركين بنزعهم عند الموت وقبض ارواحهم إلى النار ، يقولون لهم : أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة ، وتدعونهم وتعبدهم من دون الله ادعوهم يخلصونكم مما انتم فيه . قالوا : ﴿حَلَلُوا عَلَيْنَا﴾ أي : ذهبوا عنا ، فلا نرجو نفعهم ، ولا خيرهم ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي : اقرؤا واعترفوا على انفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ .

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِبْنِ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ۗ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ أَخْهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَابُنَا فَجَاءَتْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ۗ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنَّ لَأَنفُسِكُمْ وَوَقَّالَتْ أُولَدَهُمْ لِأُخْرَيْنَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به ، المقتربين عليه ، المكذبين بآياته : ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أي : من اشكالكم وعلى صفاتكم ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي : من الامم السالفة الكافرة ﴿بِمَنْ الْجِبْنِ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ يحتمل ان يكون بدلاً من قوله : ﴿فِي أُمَمٍ﴾ ويحتمل ان يكون ﴿فِي أُمَمٍ﴾ ، أي : مع اسم .

وقوله : ﴿ كَلِمًا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَنْتَ أَخْتَهَا ﴾ كما قال الخليل ، عليه السلام : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ بَعْضٌ رِيبَاقٌ وَبَعْضٌ بَعْضًا ﴾ [التكوير: ٢٥] . وقوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَفْقَهُ كَيْفَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرَبِّهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٦ ، ١٦٧] .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا افترَكُوا فِيهَا جُنُبًا ﴾ أى : اجتمعوا فيها كلهم ﴿ قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ ﴾ أى : أخرجهم دخولاً - وهم الاتباع - لأولادهم - وهم المتبعون - لانهم أشد جرماً من أتباعهم ، فدخلوا قلوبهم ، فنشكروهم الاتباع إلى الله يوم القيامة ؛ لانهم هم الذين أضلّوهم عن سواء السبيل ، فيقولون : ﴿ رَبَّنَا هَلْ أَهْلَكْنَا قُلُوبَنَا فَأَنْزَلَنَا إِلَهُكَ عَلَيْنَا حَقِيقًا مِنَ النَّارِ ﴾ أى : أضغف عليهم العقوبة ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَلَقَّبَ لُجُوجُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ . رَبَّنَا آتِهِمْ حُجَّتٍ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّهْمِ لَعْنَا كَبِيرًا ﴾ [الاحزاب: ٦٦ - ٦٨] .

وقوله : ﴿ قَالَ لِكُلِّ حِجْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : قد فعلنا ذلك وجازينا كلا بحسبه ، كما قال : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل: ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمِينَ ﴾ [التكوير: ١٣] وقال : ﴿ وَمِنَ أَوْلَادِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بَغْيٌ عَلِيمٌ أَلَسَاءَ مَا يَرْبُونَ ﴾ [النحل: ٢٥] . ﴿ وَقَالَتْ أَوْلَادُهُمْ لِأَخْرَاهُمْ ﴾ أى : قال المتبعون للاتباع : ﴿ لِمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ قال السدى : فقد ضللتهم كما ضللتنا ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ وهذا الحال كما أخبر تعالى عنهم فى حال محشرهم ، فى قوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّوْا تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَرْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْتُمْ صَدَقْتُمْ عَنِ الْهَيْدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِأَنَّ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْهَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأْنَا الدَّمَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجِئْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْقَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَمْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [س: ٣١ - ٣٣] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

قوله : ﴿ لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ قيل : المراد : لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء . قاله مجاهد ، وسعيد بن جبير . وروى عن ابن عباس . وقيل : المراد : لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء . روى عن ابن عباس . وقال السدى وغير واحد ، ويؤيده ما روى ابن جرير :

عن البراء ؛ أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر ، وأنه يُصعد بها إلى السماء ، فيصعدون بها ، فلا تمر على ملا من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان ، بأقبح أسمائه التى كان يدعى بها فى الدنيا ، حتى يتسوها بها إلى السماء ، فيستفتحون بابها له فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ (١) . هكذا رواه ، وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه ، وقد رواه الإمام أحمد عن البراء

ابن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهنا إلى القبر ولمَّا يُلحَد. فجلس رسول الله ﷺ وجلنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استمينا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحَنُوط من حَنُوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر. ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان». قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السماء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط. ويخرج منها كأطيب نعمة مسك وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها فلا يمرون - يعني - بها على ملا من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى يتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، ويفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله، عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى». قال: «فتعاد روحه، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت. فينادى مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، والبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة. فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مدَّ بصره». قال: «ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعده. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عمك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أعلى ومالي».

قال: «وإن العبد الكافر، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب». قال: «فتفرق في جسده، فيتزعها كما يتزع السقود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملا من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا، فيستفتح، فلا يفتح له. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، فيقول الله، عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى. فتطرح روحه طرْحًا. ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ لَكُنَّا خَرًّا مِنْ السَّمَاءِ فَخَطَفْتُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ﴾ [الحج : ٣١] . « فتعاد روحه في جسده. ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري! فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري! فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري. فينادى مناد من السماء: إن كذب، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرَّها وسمومها، ويصيق عليه

قبره حتى تختلف فيه أضلعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، متنق الرياح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر. فيقول: أنا عمك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة. وروى أحمد أيضا عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فذكر نحوه. وفيه: «حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله، عز وجل، أن يعرج بروحه من قبليهم». وفي آخره: «ثم يقبض له أعمى أصم أبكم، في يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيله الله، عز وجل، كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعا كل شيء إلا الثقلين». قال البراء: «ثم يفتح له باب من النار، ويمهد له من فرش النار» (١).

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن ماجه وابن جرير - واللفظ له - عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فيقولون ذلك حتى يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقولان: فلان. فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فيقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله، عز وجل. وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فيقولون ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان. فيقولون: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لم يفتح لك أبواب السماء، فتوصل بين السماء والأرض، فتصير إلى القبر» (٢).

قال ابن جرير في قوله: «لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ» قال: لا تفتح لأعمالهم، ولا لأرواحهم. وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم.

وقوله: «وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبَسَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ» هكذا قرأ الجمهور (٣)، وفسروه بأنه البعير. قال ابن مسعود: هو الجمال ابن الناقة. وفي رواية: زوج الناقة. وقال الحسن البصري: حتى يدخل البعير في خرق الإبرة. وكذا قال أبو العالية، والضحاك. وكذا روى عن ابن عباس. وقال مجاهد، وعكرمة، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: «يلبج الجمل في سم الخيام» بضم الجيم، وتشديد الميم، يعني: الحبل الغليظ في خرق الإبرة. وهذا اختيار سعيد بن جبير. وفي رواية أنه قرأ: «حتى يلبج الجمل» يعني: قُلُوس السفن، وهي الحبال الغلاظ.

(١) الرواية الأولى في السنن (٤ / ٢٨٧ ، ٢٨٨) والثانية فيه (٤ / ٢٩٥ ، ٢٩٦ حلي) وهو في أبي داود (٤٧٥٣ ، ٤٧٥٤). ورواه الحاكم (١ / ٣٧ - ٣٩) بأسانيد، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وأطال الحافظ ابن القيم القول في تصحيحه والرد على من أعله - في تهذيب السنن (٤٥٨٦) (٧ / ١٣٩ - ١٤٦). ونقله قاضي القضاة ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص ٣٣١ - ٣٣٣) ونسبه أيضا لابن أبي هوانة وابن حبان.

(٢) مضى في هذا الجزء مخرجاً عند الآيات ٤٠ - ٤٥ من سورة الأنعام.

(٣) في المطبعة: «هكذا رواه الجمهور». وفي للخطوطين: «هكذا فسره الجمهور». وكلاهما غير جيد، فكتبتاها «قرأ» لأنه أصبغ في المعنى وأجود.

وقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قال محمد بن كعب القرظي: الفرش ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ قال: اللحف. وكذا قال الضحاك بن مزاحم، والسدي ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا اِلاَّ وُسْعَهَا اُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا اَنْ هَدَانَا اللّٰهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ وَنُودُوا اَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ اُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

لما ذكر تعالى حال الاشقياء عطف بذكر حال السعداء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله، واستكبروا عنها.

وبينه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل؛ لأنه تعالى قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا اِلاَّ وُسْعَهَا اُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ﴾ أي: من حسد وبغضاء، كما جاء في الصحيح للبخاري عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خلس المؤمنون من النار حُسبوا على قطرة بين الجنة والنار، فاقص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذبوا وتُقوا، أذن لهم في دخول الجنة؛ فوالذي نفسى بيده، إن أحدهم بمنزله في الجنة أدلّ منه بمسكنه كان في الدنيا». وقال قتادة: قال عليّ: «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ﴾. رواه ابن جرير. وروى عبد الرزاق عن عليّ قال: فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ﴾. وروى النسائي وابن مردويه - واللفظ له - عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني، فيكون له شكراً. وكل أهل النار، يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني، فيكون له حسرة» (١). ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة: ﴿نُودُوا اَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ اُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم. وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتعمدني الله برحمته منه وفضل» (٢).

﴿وَنَادَى اَصْحَابُ الْجَنَّةِ اَصْحَابَ النَّارِ اَنْ قَدْ جَعَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَاذَنْ مُؤَدِّنُ بَيْنَهُمْ اَنْ لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِيْنَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللّٰهِ وَيَسْتَوْتَنَّا بِعُوجَا وَهْمٍ بِالْآخِرَةِ كَفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل الجنة أهل النار إذا استقروا في منازلهم - وذلك على وجه التقرير والتوبيخ: ﴿اَنْ قَدْ جَعَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا﴾ «أن» هنا مفسرة للقول المحذوف، و«قد» للتحقيق، أي: قالوا

(١) ورواه أحمد في المسند (١٠٦٦٠). وذكره الهيثمي في الزوائد (١٠ / ٣٩٩) ثم رواية أخرى له، ثم قال: «رواه كله أحمد، ورجال الرواية الأولى (يريد هذه الرواية) رجال الصحيح».

(٢) هو بمعناه ثابت من حديث أبي هريرة. انظر المسند (٧٢٠٢، ٧٤٧٣، ٧٥٧٧) والبخاري (١٠ / ١٠٩، ١١٠، و ١١ / ٢٦٢ - ٢٦٥).

لهم : ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ كما أخبر تعالى في سورة «الصفافات» عن الذى كان له قرين من الكفار : ﴿فَطَلَعَ فَرَأَاهُ فِي سِوَاءِ الْجَحِيمِ . قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ تُرْجِدِينَ . وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتَ مِنَ الْمُحْضَرِينَ . أَلَمْ أَنْصُرْ بِمِيعَتَيْنِ . إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ﴾ [الآيات : ٥٥ - ٥٩] أى : ينكر عليه مقالته التى يقولها فى الدنيا، ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال، وكذلك تفرعهم الملائكة يقولون لهم : ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَلَيْسَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سِوَاءِ عَلِيمِكُمْ إِنَّمَا تُعْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور : ١٤ - ١٦] . وكذلك قرع رسول الله ﷺ قتل القليب يوم بدر، فنادى : يا أبا جهل ابن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة - وبسمى رؤوسهم - هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإنى وجدت ما وعدنى ربي حقاً . قال عمر : يا رسول الله، تخاطب قوماً قد جيئوا ؟ فقال : والذى نفسى بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا .

وقوله : ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بِهِتْمُ﴾ أى : أعلم معلّم ونادى متاد : ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أى : مستقرة عليهم . ثم وصفهم بقوله : ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِزًّا﴾ أى : يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الانبياء، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أى : وهم بقاء الله فى الدار الآخرة كافرون، أى : جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به . فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل؛ لأنهم لا يخافون حساباً عليه ، ولا عقاباً، فهم شر الناس أعمالاً واقوالاً .

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَتَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِمَ عَلَيْكُمْ لَرَّ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ ﴿١٣﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصُرُهُمْ فَلِقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٤﴾

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، تبّه أن بين الجنة والنار حجاباً، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة . قال ابن جرير : وهو السور الذى قال الله تعالى : ﴿فَضْرِبْ بِهِتْمُ بِسُورِ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد : ١٣] . وهو الاعراف الذى قال الله تعالى : ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ . ثم روى بإسناده عن السدى أنه قال فى قوله تعالى : ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وهو «السور»، وهو «الاعراف» . وقال مجاهد : الاعراف : حجاب بين الجنة والنار، سور له باب . قال ابن جرير : والاعراف جمع «عرف»، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى «عرفاً»، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه . وعن ابن عباس : الاعراف، تل بين الجنة والنار، حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار . وفى رواية عنه : هو سور بين الجنة والنار . وكذلك قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير .

واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الاعراف من هم، وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو : أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم . نص عليه حذيفة، وابن عباس، وابن مسعود، وغير واحد من السلف والخلف، رحمهم الله . وقد جاء فى حديث مرفوع رواه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله ﷺ عن استوت حسناته وسيئاته ؟ فقال : «أولئك أصحاب الاعراف، لم يدخلوها وهم يطمعون» . وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، ورواه من وجه آخر عن محمد بن المنكسر عن رجل من مزينة قال : سئل رسول الله ﷺ عن استوت حسناته وسيئاته وعن أصحاب

الاعراف؟ فقال: «إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم، فقتلوا فى سبيل الله». وعن يحيى بن عبد الرحمن المزنى، عن أبيه قال: سئل رسول الله ﷺ عن «أصحاب الاعراف» فقال: «هم ناس قتلوا فى سبيل الله بمصيبة آبائهم، فممنهم من دخول الجنة مصيبة آبائهم ومنهم من النار قتلهم فى سبيل الله».

هكذا رواه ابن مردويه، وابن جرير، وابن أبي حاتم وكذا رواه ابن ماجه مرفوعاً، من حديث أبى سعيد الخدرى وابن عباس، والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة وقصاراها أن تكون موقوفة وفيه دلالة على ما ذكر. وروى ابن جرير عن حذيفة؛ أنه سئل عن أصحاب الاعراف، قال: فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، وخلقت بهم حسناتهم عن النار. قال: فوقفوا هنالك على السور حتى يقضى الله فيهم.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسْمَاهُمْ﴾ قال ابن عباس: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه. وقال ابن عباس: أنزلهم الله بتلك المنزلة، ليعرفوا من فى الجنة والنار، وليعرفوا أهل النار بسواد وجوه، ويتمنوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين. وهم فى ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام، لم يدخلوها، وهم يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله. وكذا قال مجاهد، والضحاك، وغيرهم. وعن الحسن: أنه تلا هذه الآية: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع فى قلوبهم، إلا للكرامة يريد بها بهم. وقال قتادة: أنباكم الله بمكانهم من الطمع.

وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن عباس: إن أصحاب الاعراف إذا نظروا إلى أهل النار عرفوهم، قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فرأوا وجوههم مسودة، وأعينهم مزرقة ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿أَهْلُوا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنْتَهِمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

يقول تعالى إخبارا عن تفرغ أهل الاعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم، يعرفونهم فى النار بسماهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أى: كثرتكم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال ﴿أَهْلُوا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنْتَهِمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال ابن عباس: معنى: أصحاب الاعراف ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. وروى ابن جرير عن ابن عباس: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ الآية، قال: فلما قالوا لهم الذى قضى الله أن يقولوا - معنى أصحاب الاعراف لأهل الجنة وأهل النار - قال الله لأهل التكبر والاموال: ﴿أَهْلُوا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنْتَهِمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ آفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَابِنَا يُجَادُونَ﴾

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم، وأنهم لا يجابون إلى ذلك . قال السدي : ﴿وَتَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ الْيَهُودَ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ . يعني : الطعام . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يستطعمونهم ويستقونهم . وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ . يعني : طعام الجنة وشرابها .

ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا باتخاذهم الدين لهوا ولعبا، واغترارهم بالدنيا وزينتها ووخرفها عما أمروا به من العمل للدار الآخرة .

وقوله : ﴿فَالْيَوْمَ نَسَاءُكُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ . أي : نعاملهم معاملة من نسيتهم ، لأنه تعالى لا يشد عن علمه شيء ولا ينساه ، كما قال تعالى : ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَحْضُرُ رَبِّي وَلَا يَنْسِي﴾ [طه : ٥٢] . وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة ، كما قال : ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة : ٦٧] ، وقال : ﴿كَذَلِكَ أَنْتُمْ آيَاتُنَا فَنَسِيهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ [طه : ١٢٦] ، وقال تعالى : ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجنائز : ٢٤] . وقال ابن عباس : نسيتهم الله من الخير ، ولم ينسهم من الشر . وقال ابن عباس : نتركهم ، كما تركوا لقاء يومهم هذا . وقال مجاهد : نتركهم في النار . وقال السدي : نتركهم من الرحمة ، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا . وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : «الم أزورك؟ الم أكرمك؟ الم أسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك تراس وتربع؟ فيقول : بلى . فيقول : أظنت أنك ملائي؟ فيقول : لا . فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتي » (١) .

﴿وَلَقَدْ جَنَنَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلْتُهُ عَلَىٰ عَلَيْهِمْ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَكَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِالْحَقِّ قَهْلَ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

يقول تعالى مخبرا عن إعداده إلى المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول ، وأنه كتاب مفصل مبين ، كما قال تعالى : ﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّي حَكِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [مرد : ١] .

وقوله : ﴿فَصَلْتُهُ عَلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ . أي : على علم منا بما فصلناه به ، كما قال تعالى : ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء : ١٦٦] . قال ابن جرير : وهذه الآية مردودة على قوله : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُبَدِّرَ بِهِ وَذَكَرْتَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف : ٢] . ﴿وَلَقَدْ جَنَنَهُمْ بِكِتَابٍ﴾ الآية . وهذا الذي قاله فيه نظر ، فإنه قد طال الفصل ، ولا دليل على ذلك ، وإنما لما أخبر بما صاروا إليه من الخسار في الدار الآخرة ، ذكر أنه قد أراح علمهم في الدار الدنيا ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، كقوله : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء : ١٥] ؛ ولهذا قال : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ . أي : ما وعد من العذاب والنكال والجنة والنار . قاله مجاهد وغير واحد . وقال الربيع : لا يزال يجيء من تأويله أمر ، حتى يتم يوم الحساب ، حتى يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيتم تأويله يومئذ .

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ . أي : يوم القيامة ، قاله ابن عباس ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ . أي : تركوا العمل به ،

(١) مضى عند الآية : ٤٧ من سورة البقرة مختصرا هكذا . وهو جزء من حديث طويل في المسند (١٠٢٨٢) وصحيح مسلم (٢ / ٢٨٦) من حديث أبي هريرة .

وتناسوه في الدار الدنيا ﴿فَدَجَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أي: في خلاصنا عما صرنا إليه مما نحن فيه ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يُلْقُوا عَلَى النَّارِ فَيَقَالُوا يَا لَيْتَا نُرَدُّ أَوْ لَنَا بُرْدٌ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَتَوَرَّقُوا لِعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، كما قال هاهنا: ﴿فَدَخَسُوا أُنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله، فلا ينصرونهم، ولا يشفعون فيهم، ولا يتقنونهم مما هم فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

يخبر تعالى أنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن . والستة الأيام هي: الأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة - وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام. واختلفوا في هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كآلف سنة، كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس؟ فاما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبت فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل». فقد رواه مسلم والنسائي، وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال في ستة أيام؛ ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة، عن كعب الأحبار، ليس مرفوعا، والله أعلم (١).

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدا، ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديما وحديثا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه ولا تمطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و﴿نَسِ كَيْفَهُ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الثوري: ١١]، بل الأمر كما قال الأئمة - منهم نعيم بن حماد الخزازي شيخ البخاري، قال: «من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر». وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله

(١) المستدرك (٨٢٢٢). والتعليل بأنه ما أخذ أبو هريرة عن كعب الأحبار - ليس بجيد ولا مستقيم مع السياق؛ لقوله في أوله: «أخذ رسول الله ﷺ بيدي». وإنما الخطأ من بعض الرواة. وقد مضى الحديث والكلام عليه عند الآية: ٢٩ من سورة البقرة.

تعالى النفاص، فقد سلك سبيل الهدى.

وقوله تعالى: ﴿يَهْبِشُ اللَّيْلُ النَّهَارَ يَغْلِبُهُ خَيْفًا﴾ أى: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، أى: سريعاً لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هنا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هنا، كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهْمُ اللَّيْلِ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠]. فقولهُ: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أى: لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو فى أثره لا واسطة بينهما؛ ولهذا قال: ﴿يَغْلِبُهُ خَيْفًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسْتَخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ منهم من نصب، ومنهم من رفع، وكلاهما قريب المعنى، أى: الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته؛ ولهذا قال مُنْبِئًا: ﴿إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ ٢: أى: له الملك والتصرف، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، كما قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

﴿ اذْعُوا رَبِّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه، الذى هو صلاحهم فى دنياهم وأخراهم، فقال: ﴿اذْعُوا رَبِّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قيل: معناه: تذللاً واستكانة، كما قال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَقَدُونَ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ بِالْفَتْرِ وَالْأَسْمَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الاعراف: ٢٠٥]، وفى الصحيحين، عن أبى موسى الأشعرى، قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيتها الناس، اربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذى تدعونه سميع قريب». الحديث. وقال ابن عباس فى قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، قال: السر. وقال ابن جرير: ﴿تَضَرُّعًا﴾: تذللاً واستكانة لطاعته ﴿وَخُفْيَةً﴾ بقول: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهاراً ومراءاة. وقال الحسن: إن كان الرجل لقد جمع القرآن، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزوار وما يشعرون به. ولقد أدركتنا أقراباً ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه فى السر، فيكون علانية أبداً. ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء، وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿اذْعُوا رَبِّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رَضِيَ فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٢]. وقال ابن جرير: يكره رفع الصوت والنداء والصياح فى الدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة، ثم روى ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ فى الدعاء ولا فى غيره. وقال أبو مجلز: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾: لا يسأل منازل الأنبياء. وروى أحمد عن مولى لسعد؛ أن سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول: اللهم، إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوها من هذا، وأهوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها. فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً، وتعوذت بالله من شر كثير، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيكون قوم يعتدون فى الدعاء». وقرأ هذه الآية: ﴿اذْعُوا رَبِّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، وإن بحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول أو

عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل». ورواه أبو داود^(١). وروى أحمد : أن عبد الله بن مَعْقِلَ سمع ابنه يقول: اللهم، إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بني، سل الله الجنة، وعُدْ به من النار؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يَمْتَدُونَ في الدعاء والطهور». رواه ابن ماجه، وأبو داود، وهو إسناده حسن لا بأس به، والله أعلم^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: ينهى تعالى عن فساد في الأرض، وأضره بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضر ما يكون على العباد. فنهى تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، فقال: ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفا مما عنده من وبيل العقاب، وطمعا فيما عنده من جزيل الثواب.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إن رحمته مُرَصَّدة للمحسنين، الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَأَسْأَلُهَا لِمَن يَشَاءُ﴾ [الاعراف: ١٥٦، ١٥٧]. وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾، ولم يقل: «قريبة»؛ لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: قريب من المحسنين. وقال مطر الوراق: استجزوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين، رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَتْهُ لِبَنَاتٍ مِّمَّنْ فَاتَزَلْنَا بِهِ نَمَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لِقَابِكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾
﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَيَادِي الرَّبْوِ وَالَّذِي حَبَتَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر، وأرشد إلى دعائه؛ لأنه على ما يشاء قادر - به تعالى على أنه الرزاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ نَشْرًا﴾ أي: ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ «بشرا»^(٣) كقولته: ﴿وَمِن آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مَبْشُرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦].

وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: بين يدي المطر، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بِعَدِّ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْسِنٌ مُّوْتَوِيٌّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].^(٤)

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي: حملت الرياح سحاباً ثقالاً، أي: من كثرة ما فيها من

(١) المسند (١٤٨٣).

(٢) المسند (١٦٨٦٧). ورواه أيضا الحاكم في المستدرک (٥٤٠/١) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٣) قراءة «بشرا» بالياء المضمومة مع سکون الشين - هي قراءة عاصم، وهي التي في قراءة حفص عن عاصم - وقرأها ابن عامر: «نشرا» بضم النون مع سکون الشين. وقرأها حمزة والكسائي بفتح النون وإسكان الشين. وقرأ باقي السبعة بضم النون والشين معا.

(٤) «إلى أثر رحمة الله»: ثبتت كلمة «أثر» بالإنفراد في المخطوطتين. وقراءة حفص وابن عامر وحمزة والكسائي: «آثار» بالجمع. وقرأ باقي السبعة بالإنفراد. وهي التي قرأ بها المؤلف وأثبتها في تفسيره.

الماء، تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة . وقوله: ﴿سُقْنَاهُ لِبَدْنِ مَيْتٍ﴾ أى: إلى أرض ميتة، مجذبة لا نبات فيها، كما قال: ﴿وَأَيُّ لَهْمٍ الْأَرْضُ الْعَيْتَةُ أَحْبَبْتَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٢٣] ، ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نَخْرُجُ الْمَوْتَى﴾ أى: كما أحينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحى الأجساد بعد صيورتها رَمِيمًا يوم القيامة، ينزل الله، سبحانه وتعالى، ماء من السماء، فتطرر الأرض أربعين يوماً، فتنبت منه الأجساد فى قبورها كما ينبت الحب فى الأرض. وهذا المعنى كثير فى القرآن، يضرب الله مثلاً للقيامة بإحياء الأرض بعد موتها؛ ولهذا قال: ﴿فَلَكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَالْبَلَدِ الطَّيِّبِ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أى: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً، كما قال: ﴿فَتَجَلَّى رَبُّهَا بِقَوْلٍ خَيْرٍ وَأَنْتَ بِهَا نَبَاتٌ حَسَنٌ﴾ [آل عمران: ٢٧]. ﴿وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكَبًا﴾ قال مجاهد وغيره: كالسباخ ونحوها. وقال ابن عباس فى هذه الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر. وروى البخارى عن أبى موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلا والعشب الكثير. وكانت منها أجادب أمسكت الماء، ففجع الله بها الناس، فشربوها وسقوا ودرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذى أُرْسِلْتُ به». رواه مسلم والنسائى .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَكَلٍ مَّيِّينٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي بِسَلْطَنَةٍ عَلَىٰ أُولَٰئِكَ لِيُذَكَّرْنَ ﴿٦٠﴾ وَرَأَىٰ يَاقُونَكَ إِذْ يَقُولُ لِغُفَّارٍ فَيُكَفِّرُهُم بِالْعُقُوبِ ﴿٦١﴾ إِنَّكَ لَنَرِيكَ فِي سَكَلٍ مَّيِّينٍ ﴿٦٢﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم فى أول السورة، وما يتعلق بذلك ويتصل به، وفرغ منه - شرع تعالى فى ذكر قصص الأنبياء، عليهم السلام، الأول فالأول، فابتدأ بذكر نوح، عليه السلام، فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم، عليه السلام، قال ابن إسحاق: ولم يلق نبى من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبى قتل. قال ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام، أن قوماً صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صورة أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان، جعلوا تلك الصور أجساداً على تلك الصور. فلما تئامد الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين يَغُوث وَيَعُوقُ وَنَسْرَةَ. فلما تقادم الأمر بعث الله، سبحانه وتعالى - وله الحمد والمثنة - رسوله نوحاً يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أى: من عذاب يوم القيامة إن لقيتم الله وأنتم مشركون به ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أى: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَكَلٍ مَّيِّينٍ﴾ أى: فى دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التى وجدنا عليها آباءنا. وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار فى ضلالة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُوا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ لَسُبُّوا هَذَا الْفُلَّ قَدِيمًا﴾ [الاحقاف: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : ما أنا ضال، ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ مَا لَا تَفْخَرُونَ ﴾ . وهذا شأن الرسول، أن يكون بليغاً فصيحاً ناصحاً بالله، لا يدرهم أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعا: «أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك بليغ وأديب ونصحت، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد» (١).

﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتُحْيِيَنَّهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾
يقول تعالى إخباراً عن نوح : انه قال لقومه : ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتُحْيِيَنَّهُ وَأَمَّا الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ (٢).
رحمة بكم ولطفاً واحساناً إليكم، لإنذاركم ولتقوا نعمة الله ولا تشركوا به ﴿ وَلِتُحْيِيَنَّهُ ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي : فمادوا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل، كما نص عليه تعالى في موضع آخر ﴿ فَأَجْمَعَهُمْ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾، وهي السفينة، كما قال: ﴿ فَأَجْمَعَهُمْ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ [المتكوت: ١٥] ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ كما قال: ﴿ فَمَا خَطْبَاهُمْ أَغْرَقُوا فَادْخُلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ [نوح: ٢٥] (٣).

وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ أي : عن الحق، لا يصرونه ولا يهتدون له. فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأولياته من أعدائه، وأنجي رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، كما قال : ﴿ إِنَّا نَسُفِّرُ سُنَّتَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْرِفَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [آثار: ٥١، ٥٢]. وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة . أن العقاب فيها للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح بالغرق ، ولجى نوحاً وأصحابه المؤمنين .

﴿ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَيْلَيْكُمْ رَسُولٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنَا لَكَ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ زَوَادِكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصِطَةً فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾
يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوحاً، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. قال ابن

إسحاق: هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. قلت: وهؤلاء هم عاد الأولى، الذين ذكرهم الله ، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمدة في البر، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ

(١) هو جزء من حديث جابر الطويل ، في صفة حجة النبي ﷺ في صحيح مسلم (١ / ٣٤٦ - ٤٣٨) .

(٢) ثبت في المخطوطتين (عما خطباهم) ، فأثبتناهما كذلك ، وهي قراءة أبي عمرو . وقرأ باقي السبعة (عما خطبناهم) .

وَبِكَ بَعَادٍ . لِمَ ذَاتِ الْعَصَادِ . الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ﴿ [الجمبر : ٦ - ٨] وذلك لشدة بأسهم وقوتهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً لَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَلُونَ ﴾ [فصلت : ١٥] . وقد كانت مساكنهم باليمن بالاحقاف ، وهي حبال الرمل (١) . روى ابن إسحاق عن أبي الطقييل عامر بن وائلة : سمعت علياً يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كشييا أحمر يخالطه ملة حمراء ذا لراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت ؟ هل رأيت كشييا نعم يا أمير المؤمنين . والله إنك لتنته نعت رجل قد رآه . قال : لا ، ولكنى قد حدثت عنه . فقال الحضرمي : وما شأنه يا أمير المؤمنين ؟ قال : فيه قبر هود ، عليه السلام . رواه ابن جرير . وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن ، فإن هودا ، عليه السلام ، دفن هناك ، وقد كان من أشرف قومه نسيا ؛ لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم ، ولكن كان قومه كما شدّد خلقهم شدّد على قلوبهم ، وكانوا من أشد الأمم تكديبا للحق ؛ ولهذا دعاهم هود ، عليه السلام ، إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإلى طاعته وتقواه .

﴿ قَالَ أَتَى اللَّهُ الْبَلَدَ كَثُرُوا مِنْ قَوْمِي ﴾ والملا هم : الجمهور والسادة والقادة منهم ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أي : في ضلالة حيث دعوتنا إلى ترك عبادة الاصنام ، والإقبال إلى عبادة الله وحده ، كما تعجب الملا من قريش من الدعوة إلى إله واحد ، فقالوا : ﴿ اجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَفِئَةٌ جُحَابٌ ﴾ [ص : ٥] . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَكَيْفِي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : لست كما تزعمون ، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء ، فهو رب كل شيء ومليكه ﴿ أَبَلِّغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل : البلاغ والنصح والامانة . ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِثْلِكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ أي : لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقائه ، بل احمداوا الله على ذلكم ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أي : واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم من ذرية نوح ، الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته ، لما خالفوه وكذبوه ، ﴿ وَرَزَقَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ أي : زاد طولكم على الناس بسطة . أي : جعلكم أطول من أبناء جنسكم ، كما قال تعالى : في قصة طالوت : ﴿ وَرَزَقَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] . ﴿ فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ ﴾ أي : نعمه ومنته عليكم ﴿ فَطَلَّكُمْ تَلْبِخُونَ ﴾ و « الآلاء » جمع « إلى » ، وقيل : إلى (٢) .

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُ وَاذْكُرُوا مَا كَانَ يَمْبُدُ آبَاءَنَا فَأَنَّا بِنَمَا نَعِدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ أُنْجِدِ لَوْ تَنبِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿ فَأَجِئْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿

يقول تعالى مخبرا عن قومه وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود ، عليه السلام : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا

(١) حبال الرمل : بالهاء المهملة ، جمع « حبل » . وهي المستطيل من الرمل ، الضخم منه . والحبال في الرمل كالجبال في غير الرمل .

(٢) « الآلى » مقصور ، بفتح الهمزة وكسرها ، وجمعها آلاء ، كسب وأسباب . في حالة الفتح . ومثلها « الإلى » : بكسر الهمزة وسكون اللام وأخبره به .

لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَرَحْمَهُ وَتَقَرُّمًا كَانَ يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنَّا بِمَا تَعَدَّدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٧﴾ ، كما قال الكفار من فريش: ﴿وَأَوْدُ قَالُوا
اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانفال: ٣٢] . ولهذا قال
هود، عليه السلام: ﴿فَدَّوَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسًا وَغَضَبًا﴾ أي: قد وجب عليكم بمقاتلتكم هذه من ريبكم
رجس ، قيل: هو مقلوب من « رجز » . وعن ابن عباس: معناه السخط والغضب . ﴿أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ
سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾ أي: أتحاجوني في هذه الاصنام التي سميتوها انتم وأبائكم آلهة، وهي لا تضر
ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً؟! ولهذا قال: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا
إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه؛ ولهذا عقب بقوله: ﴿فَالْمُجْرِمِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ بِرَحْمَةِ
مَنَّا وَقَطَّعُوا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ .

وقد ذكر سبحانه، صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ما تذر
من شيء أنت عليه إلا جعله كالرميم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوهَا فَبِريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ .
سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٌ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾
[الحاقة: ٦ - ٨] . لما تمردوا وعتوا أهلهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه إلى الهواء
ثم تنكسه على أم رأسه فتلتغ رأسه حتى تبينه من جسده؛ ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٌ﴾ .

وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن ، بين عمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد نشوا
في الأرض وقهروا أهلها، بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله،
فبعث الله لهم هوداً، عليه السلام، وهو من أوسطهم نسباً، وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يوحدوا الله
ولا يجعلوا معه إلها غيره، وأن يكفروا عن ظلم الناس، فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة؟
واتبعه منهم ناس - وهم يسير - يكتُمون إيمانهم، فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه، وأكثروا في الأرض
الفساد وتجبروا، وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع، كلمهم هود فقال: ﴿أَتُوبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَعْتَبُونَ . وَتَتَّخِذُونَ
مَصَانِعَ لَكُمْ لَتَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣١] . ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا
بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَاتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أي: بجنون ﴿قَالَ
إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مَنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظَرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا
مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِعَصَمَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٣ - ٥٦] .

روى الإمام أحمد عن أبي وائل، عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي
إلى رسول الله ﷺ ، فمررت بالريفة ، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت : يا عبد الله، إن
لى إلى رسول الله ﷺ حاجه، فهل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاص
بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال مقلد سيقا بين يدي رسول الله ﷺ ، فقلت: ما شأن
الناس؟ قالوا: يريد أن يعث عمرو بن العاص وجها . فقال: فجلست، قال: فدخل منزله - أو قال:
رحله - فاستأذنت عليه، فأذن لى، فدخلت وسلمت، قال: هل بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم،
وكانت لنا الدبيرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك، وها هي
بالباب . فأذن لها، فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً، فاجعل
الدهناء . فحميت العجوز واستوفزت، فقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت:
إن مثلى ما قال الاول: معزى حملت حتفها، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصماً، أعوذ بالله

ويرسوله أن يكون كوافد عاد ، قال لى : وما وافد عاد؟ - وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يسطعمه - قلت : إن عاداً قَطَعُوا فَبِعَثُوا وَاغْدُوا لَهُمْ يَقَالُ لَهُ : قِيلَ ، فمر بمعاوية بن بكر ، فأقام عنده شهراً يسقيه الحمر وتغنيه جاريثان ، يقال لهما : الجرادتان ، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة ، فقال : اللهم إنك تعلم أنى لم أجن إلى مريض فأدويه ، ولا إلى أسير فأفاديه . اللهم أسق عباداً ما كنت تسقيه ، فمرت به صحابات سود ، فنودى منها : اختر . فأومأ إلى سحابة منها سوداء ، فنودى منها : خطها رماداً رمعداً ، لا تبقى من عاد أحداً . قال : فما بلغنى أنه بعث عليهم من الريح إلا قدر ما يجرى فى خائلى هذا ، حتى ، هلكوا - قال أبو وائل : وصدق ، قال : وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وَاغْدُوا لَهُمْ قالوا : لا تكن كوافد عاد . ورواه الترمذى نحوه . ورواه النسائي وابن ماجه (١) .

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ قَدْ رَوَّهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّهَا يَمُوسُ فَإِذَا دَخَلْتُمْ عَلَيْهَا قُولُوا لَهَا سَلَامًا وَلَا تَسْخَرُوا مِنْهَا فَإِن يَنْفَكُوا مِنْهَا فَإِنَّهَا تَالِيَةٌ لَهُمْ لِيُبْئِيَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ يَصْطَلِحُ أُمُورَهُمْ كَمَا يَشَاءُ أَلَّا تُدْرِكُوا الْبَصِيرَةَ ﴾

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَنْتَطَمَوْا أَنَّهُمْ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِمْ قَالُوا إِنَّا بِكُمْ أَسَكِبُوا إِنَّا بِالَّذِينَ آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ أَقِنَّا بِمَا نَدْعُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴿١٨﴾ ﴾

قال علماء التفسير والنسب: ثمود وكذلك قبيلة طسم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل، عليه السلام، وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع .

روى الإمام أحمد ، عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فمجنوا منها ونصبوا منها القدور . فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور، وحلفوا المجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال : إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم « (٢) . وروى أحمد عن عبد الله بن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر : لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم . وأصل هذا الحديث مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحِينَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ (٣) . وروى الإمام أحمد عن أبي كبشة الأنماري ، قال : لما كان في غزوة

(١) المسند (١٦٠٢٠) . ورواه الطبري (١٤٨٠٥ ، ١٤٨٠٦) بنحوه . وقصة هذه المرأة - وهي قبيلة بنت مخزوم - في

الإصابة (٨ / ١٧١) وجمع الزوائد (٦ / ٩ - ١٢) .

(٢) المسند (٥٤٤١) .

(٣) المسند (٥٩٨٤) . ورواه أيضا الشيخان ، كما بينا هناك .

تبوك، تسارع الناس إلى أهل الحجر، يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنادى في الناس: «الصلاة جامعة». قال: فاتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعمرة وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم». فناداه رجل منهم: نعجب منهم يا رسول الله قال: «أفلا أنيئكم بأعجب من ذلك: رجل من أنفسكم ينسبكم بما كان قبلكم، وبما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله لا يعاب بعذابكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً». لم يخرج أحد من أصحاب السنن، وأبو كبشة: اسمه عمرو بن سعد، ويقال: عامر بن سعد، والله أعلم (١). وروى الإمام أحمد عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألتها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، ففتروا عن أمر ربهم ففقروها، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً، ففقروها، فأخذتهم صيحة، أهدم الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله». فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال». فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه. وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم (٢).

فقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، جميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الانبيا: ٢١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿فَدُجِبَ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَهَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به. وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية. فأقامت الناقة وفصيلها - بعد ما وضعته بين أظهرهم - مدة تشرب من شرها يوماً، وتدعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوماً شرابها، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَنَبِّئَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ حَرْبٍ مُحْتَضِرٌ﴾ [الفر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا حَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَطْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]. وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فج وتصدر من غيره ليسمها؛ لأنها كانت تتسلع من الماء، وكانت على ما ذكر - خلقاً هائلاً ومنظراً رائعاً، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها. فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي، عليه السلام، حزموا على قتلها، ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها. وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَفَقَرُوا فَدَمَّتْ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَنَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤]، وقال: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْهَرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال: ﴿فَطَفَرُوا النَّاقَةَ﴾ فاستد ذلك إلى مجموع القبيلة، فدل على رضا جميعهم بذلك، والله أعلم.

قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد، سوى صالح، عليه السلام، ومن اتبعه، ورضى الله عنهم، إلا أن رجلاً كان يقال له: «أبو رغال»، كان لما وقعت النقمة بقومه مقيماً إذ ذاك في الحرم، فلم يصبه شيء، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل، جاءه حجر من السماء فقتله. وقد تقدم في أول القصة حديث «جابر بن عبد الله» في ذلك، وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد «ثقيف» الذين كانوا

(١) المسند (٤ / ٢٣١ حلى). وإسناده صحيح.

(٢) المسند (٦ / ١٤٢). ورواه الطبري بنحوه (١٤٨١٧، ١٤٨٢٠، ١٤٨٢٣).

يسكنون الطائف . عن بُجَيْرِ بنِ أَبِي بَجِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ، حِينَ خَرَجْنَا مَعَهُ إِلَى الطَّائِفِ، فَمَرْنَا بِقَبْرِ فَقَالَ: «هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ، وَهُوَ أَبُو ثَقِيفٍ، وَكَانَ مِنْ ثَمُودَ، وَكَانَ بَهَذَا الْحَرَمِ يَدْفَعُ عَنْهُ، فَلَمَّا خَرَجَ، أَصَابَتْهُ النَّقْمَةُ الَّتِي أَصَابَتْ قَوْمَهُ بِهَذَا الْمَكَانِ، فَدَفِنَ فِيهِ. وَأَيَّةُ ذَلِكَ أَنَّهُ دَفِنَ مَعَهُ غَضَنٌ مِنْ ذَهَبٍ، إِنْ أَنْتُمْ نَبِشْتُمْ عَنْهُ أَصْبَمْتُمْوه، فَابْتَدَرَهُ النَّاسُ فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ الْغَضَنَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، مِنْ طَرِيقِ ابْنِ إِسْحَاقَ. قَالَ شَيْخُنَا أَبُو الْحَجَّاجِ الْمُزَيُّ: وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ عَزِيزٌ. قُلْتُ: تَفَرَّدَ بِوَصْلِهِ «بُجَيْرُ بْنُ أَبِي بَجِيرٍ» هَذَا، وَهُوَ شَيْخٌ لَا يَعْرِفُ إِلَّا بِهَذَا الْحَدِيثِ. قَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ: وَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا رَوَى عَنْهُ غَيْرَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أُمِيَّةَ.

قلت: وعلى هذا، فيخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو، مما أخذه من الزاملتين. قال شيخنا أبو الحجاج، بعد أن عرضت عليه ذلك: وهذا محتمل، والله أعلم.

وقوله تعالى:

﴿ قَتَلُوا عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾

هذا تقرير من صالح، عليه السلام، لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتمردهم على الله، وإيائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى - قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريرا وتوبيخا وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر، أقام هناك ثلاثا، ثم أمر بإراخلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل، فركبها، ثم سار حتى وقف على القليب، قليب بدر، فجعل يقول: «يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبه بن ربيعة، ويا فلان بن فلان: هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقا». فقال له عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أقوام قد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيئون». وفي السيرة أنه، عليه السلام، قال لهم: «بئس عشيرة النبي كتمت لنيكم، كذبتوموني وصدقتي الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقائلتموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كتمت لنيكم».

وهكذا صالح، عليه السلام، قال لقومه: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: فلم تصفوا بذلك، لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾. وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلك أمته، كان يذهب فيقيم في الحرم، حرم مكة، فإله أعلم. وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما مر رسول الله ﷺ بوادي عسفان حين حج قال: «يا أبا بكر، أي واد هذا؟» قال: هذا وادي عسفان. قال: «لقد مر به هود وصالح، عليهما السلام، على بكرات حمر خطمها الليف، أرزهم العباء، وأردتهم التمار، يلبون، يحجون البيت العتيق». هذا حديث غريب من هذا الوجه، لم يخرج أحد منهم^(١).

(١) ومع هذا فهو ضعيف الإسناد، في المسند (٢٠٦٧)، في إسناده دعة بن صالح، وهو ضعيف. ونقله المؤلف الحافظ في التاريخ (١/١٣٨) وقال: «إسناده حسن».

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْبَنَاتِ وَأَنْتُمْ كَارِهُونَ﴾
 ﴿الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿و﴿ لقد أرسلنا ﴿لوطاً﴾ ، أو تقديره: ﴿و﴿ اذكر ﴿لوطاً إذ قال لقومه﴾ . ولوط هو ابن هاران بن آزر، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم، عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعث الله إلى أهل سدوم، وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله، عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المأثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يقفهم بها أحد من بنى آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور . وهذا شيء لم تكن بنو آدم تعهده ولا تآلفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل سدوم، عليهم لعائن الله .

قال عمرو بن دينار: قوله: ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ قال: مانزلاً ذكراً على ذكر، حتى كان قوم لوط . وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، بنى جامع دمشق: لولا أن الله، عز وجل، قص علينا خبر لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً . ولهذا قال لهم لوط، عليه السلام: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ . إِنَّكُمْ فَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴾ أى: عدلتن عن النساء، وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال، وهو إسراف منكم وجهل؛ لانه وضع الشيء في غير محله؛ ولهذا قال لهم فى الآية الأخرى: ﴿ قَالِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الحجر: ٧١]، فأرشدهم إلى نساءهم، فاعتنوا إليه بأنهم لا يشتهونهن، ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَأَنْتُمْ لَكُمْ مَا تُرِيدُ ﴾ [هود: ٧٩] أى: لقد علمت أنه لا أرب لنا فى النساء، ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك . وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد اختنى بعضهم ببعض، وكذلك نساءهم كن قد استغنين بعضهم ببعض أيضاً .

﴿ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَلِرُونَ ﴾
 أى: ما أجابوا لوطاً إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالماً، وأهلكهم فى أرضهم صاغرين مهانين .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَلِرُونَ ﴾ قال قتادة: عابوهم بغير عيب . وقال مجاهد: إنهم أناس يتظهرون من أديار الرجال وأديار النساء . ورؤى مثله عن ابن عباس أيضاً .

﴿ فَأَجَابَتْهُ وَأَهْلَهُ: إِلَّا أَمْرًا تَهُ كَانَتْ مِنَ الْعَرَبِينَ ﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا قَاتِلًا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى: فأجبت لوطاً وأهله، ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَنَاتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، إلا امراته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، فمالتهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم؛ ولهذا لما أمر لوط، عليه السلام، أن يئرى بأهله أمر الا يعلمها ولا يخرجها من البلد . ومنهم من يقول: بل اتبعتهم، فلما جاء العذاب التفتت هى فأصابها ما أصابهم . والظاهر أنها لم تخرج من

البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِلَّا أَمْرًا تَكُنْتُمْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى: الباقين، وقيل: من المهالكين، وهو تفسير باللام.

وقوله: ﴿وَأَنْظَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ مفسر بقوله: ﴿وَأَنْظَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مُنْضُودٍ. مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ (هود: ٨٢، ٨٣)، ولهذا قال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: انظر - يا محمد - كيف كان عاقبة من يجترئ على معاصي الله ويكذب رسله (١).

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة، رحمه الله، إلى أن اللانظ يلقى من شاقق، ويتبع بالحجارة كما فعل يقوم لوط. وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن، وهو أحد قولى الشافعى، رحمه الله، والحجة ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به». وقال آخرون: هو كالزانى، فإذا كان محصناً رجم، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة. وهو القول الآخر للشافعى.

وأما إتيان النساء فى الأدبار، فهو اللوطية الصغرى، وهو حرام بإجماع العلماء، إلا قولاً شاذاً لبعض السلف، وقد تقدم الكلام عليها فى سورة البقرة (٢).

﴿وَإِنْ مَدِينٌ مَأْمُونَةٌ أُتِيَتْ فَلَا يَحْسَبُ النَّاسُ أَنَّهُم مُّؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ آسَنَةٌ يَوْمَ الْمَدِينَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ آسَنَةٌ يَوْمَ الْمَدِينَةِ﴾

مدین تطلق على القبيلة، وعلى المدينة، وهى التى بقرب «مَعَان» من طريق الحجار، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وهم أصحاب الايكة، كما سنذكره إن شاء الله، وبه الثقة. «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ»: هذه دعوة الرسل كلهم «فَدَّ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» أى: قد أقام الله الحجج والبيّنات على صدق ما جئتمكم به. ثم وعظهم فى معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أى: لا يخونوا الناس فى أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً، كما قال تعالى: ﴿زَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا كَانُوا عَلَى النَّاسِ يَتَسَوَّوْنَ. وَإِذَا كَانُوا لَهُمْ أَوْ تُزَوَّجُوا بِهِمْ يَسْتَخِفُّونَ. أَلَا يَنْظُرُونَ أَنفُسَهُمْ أَنَّهُمْ تَحُمِلُونَ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١-٦]، وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه.

ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب، الذى يقال له: «خطيب الأبياء»، لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته:

(١) وقد شاعت هذه الفاحشة القفرة، فى كثير من البلاد. وأكثر ما شاعت فى الأمة الإنجليزية الملعونة، حتى صارت عندهم شيئاً هيناً لا يعاب به، بل شيئاً لا ينكر. وواد الأمر أن كثيراً من قارستهم - لعنهم الله - أعلنوا أن ليس فى هذا العمل المنكر جرمة، إذا ما كان بالتراضى! فكانوا خزيكاً لدينهم ولاتهم.

ونحن نبشرك تلك الأمة الفاجرة القفرة الطاغية بأن ستكون عاقبتهم كمثل عاقبة قوم لوط، يهدم الله عليهم. بما اجترؤوا على هذا المنكر، ثم على ذبوعه، ثم على التصريح بإباحته، أخزاهم الله وأراح العالم من شرورهم وغلغليانهم.

(٢) عند الآية رقم (٢٢٢).

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ إِنَّ كَانَ طَائِفَةٌ
مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَبَطَّيْنَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾
ينهاهم شعيب، عليه السلام، عن قطع الطريق الحسى والمعنوى بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ
تُوعِدُونَ﴾ أى: تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم. قال السدى وغيره: كانوا عشرين. وعن
ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أى تتوعدون المؤمنين الأتيين إلى شعيب ليتبعوه. والاول اظهر؛ لانه
قال: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ وهى الطريق، وهذا الثانى هو قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾
أى: وتودون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾ أى: كنتم مستضعفين لقتلكم
فصرتم اعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى: من
الامم الخالية والقرون الماضية، ما حل بهم من العذاب والنكال باجترانهم على معاصى الله وتكذيب رسله.
وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ أى: قد اختلفتم على ﴿فَاصْبِرُوا﴾
أى: انتظروا ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أى: يفصل ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار
على الكافرين.

الجزء

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ
بِئْسَانَا قَالَ أُولُو كُنُفٍ كَثِيرِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مَبْنًى وَمَا يَكُونُ
لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا
بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً ومن معه من المؤمنين، فى توعدهم إياه
ومن معه بالنفى عن القرية، أو الإكراه على الرجوع فى ملَّتْهم والدخول معهم فيما هم فيه. وهذا خطاب
مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملَّة.

وقوله: ﴿أُولُو كُنُفٍ كَثِيرِينَ﴾ يقول: أو انتم فاعلوا ذلك وإن كنا كارهين ما تدعوننا إليه، فإننا إن رجعنا
إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمتنا القرية على الله فى جعل الشركاء معه أنداداً. وهذا
تفسيره عن اتباعه ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ وهذا رد إلى المسبب، فإنه يعلم كل شىء،
وقد أحاط بكل شىء علماً ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أى: فى أمورنا ما نأتى منها وما نذر ﴿رَبَّنَا افْحَصْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا
بِالْحَقِّ﴾ أى: انفصل بيننا وبين قومنا، وانصرنا عليهم ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أى: خير الحاكمين، فإِنَّكَ
العادل الذى لا تجور أبداً.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ ﴿٩٠﴾ لَيْنَ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِذْ كَفَرْنَا إِذْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٩١﴾ فَآخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنُودٍ ﴿٩٢﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَفْتَنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا
هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

يخبر تعالى عن شدة كفر قوم شعيب وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا فقالوا: ﴿فَإِنِ اتَّخَمْتُمْ شِعْبًا إِنَّا لَأَخْسِرُونَ﴾، فلهذا عقب ذلك بقوله: ﴿فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَانِبِينَ﴾ أخبر تعالى هاهنا أنهم أخذتهم الرجفة، وذلك لما أرجفوا شيعياً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة «هود» فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شِعْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَانِبِينَ﴾ [هود: ٩٤]. والمناسبة في ذلك - والله أعلم - أنهم لما نهكوا بنى الله شعيب في قولهم: ﴿أَصْلَاتُكَ أَفَرُّكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَمُدُّ أَبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نُنْفَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَفَاهُ إِنَّكَ لَأَتَى النَّحْلِيمَ الرَّشِيدَ﴾ [هود: ٨٧] فجاءت الصيحة أسكتهم. وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فَأَسْفُطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلمت فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس وخمدت الاجساد ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَانِبِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿كَانَ لَمْ يَفْتَرُوا لَهَا﴾ أي: كانوا لما أصابتهم النعمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها. ثم قال مقابلاً لقليلهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شِعْبًا كَذَّبُواهُمُ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْتَلَيْتُكُمْ بِرَسُولِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آمَنَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾

أي: فتولى عنهم «شعيب» عليه السلام بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنعمة والنكال، وقال مفرعاً لهم وموبخاً: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْتَلَيْتُكُمْ بِرَسُولِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: قد أدبتُ إليكم ما أرسلتُ به، فلا أسف عليكم وقد كفرتم بما جتكم به، فلهذا قال: ﴿فَكَيْفَ آمَنَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا لِيُذَكِّرَ بِالْبَاسِ وَأَلْمَسَهُمْ بِالْبَاسِ وَالضَّرَّاءَ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آهَاءَنَا الضَّرَّاءَ وَالسَّرَّاءَ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٩٥﴾

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية، الذين أرسل إليهم الأنبياء بالأساء والضراء، يعنى ﴿بِالْبَاسِ﴾: ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام ﴿وَالضَّرَّاءَ﴾: ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ أي: يدعون ويخشمون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم. وتقدير الكلام: أنه ابتلاههم بالشدّة ليتضرعوا، فما فعلوا شيئاً من الذي أراد الله منهم، فقلب الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي: حولنا الحال من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك، فما فعلوا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ أي: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء: إذا كثر ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آهَاءَنَا الضَّرَّاءَ وَالسَّرَّاءَ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى: ابتلاههم بهذا وهذا ليتضرعوا ويبتووا إلى الله، فما نَجَّحَ فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، بل قالوا: قد مسنا من البأساء

كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْتَئَ رَسُولًا ﴿ الإسراء : ١٥ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ . وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ [هود : ١٠١ ، ١٠٢] .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ الباء سببية ، أى : فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم . حكاه ابن عطية ، رحمه الله ، وهو متجه حسن ، كقوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَتَلَقَّيْنَاهُمْ وَأَنْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَىٰ مَرَّةٍ وَنَذَرْنَاهُمْ فِي طَعْنَانِهِمْ يَمَعَهُمْ ﴾ [الأنعام : ١١٠ ، ١١١] ؛ ولهذا قال هنا : ﴿ كَذَلِكَ يَطَّعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ . وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ ﴾ أى : لاكثر الأمم الماضية ﴿ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ أى : ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامثال . والعهد الذى أخذه هو ما جيلهم عليه وفطرهم عليه ، وأخذ عليهم فى الأصلاب . أنه ربهم ومليكنهم ، وأنه لا إله إلا هو ، وأتروا بذلك ، وشهدوا على أنفسهم به ، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة ، لا من عقل ولا شرع ، وفى الفطر السليمة خلاف ذلك ، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهى عن ذلك ، كما جاء فى صحيح مسلم : « يقول الله تعالى : إني خلقت عبادى حنفاءً ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم » (١) . وفى الصحيحين : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » الحديث (٢) . وقال تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مَنْ رُسُلًا أَجْعَلْنَا مِنْ قُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٥] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، إلى غير ذلك من الآيات .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرْنَا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ

الْمُفْسِدِينَ ﴿

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى : الرسل المتقدم ذكرهم ، كنوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين ﴿ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ أى : بحججنا ودلائلنا اليبينة إلى ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ وهو ملك مصر فى زمان موسى ﴿ وَمَلَأَهُ ﴾ أى : قومه ، ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أى : جحدوا وكفروا بها ظلما منهم وعناداً ، كما قال تعالى : ﴿ وَجحدُوا بِهَا وَاسْتَهْتَبْتَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٤] أى : الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله ، أى : انظر - يا محمد - كيف فعلنا بهم ، وأغرقتهم عن آخرهم ، برأى من موسى وقومه . وهذا أبلغ فى النكال بفرعون وقومه ، وأشفى لقلوب أولياء الله : موسى وقومه من المؤمنين به .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْفِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جئتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جئتُ بِبَيِّنَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿

(١) هو جزء من حديث عياض بن حمار ، مضى كاملاً وتخريجه عند الآية : ١٩ من سورة المائدة .

(٢) مضى عند الآيات : ١١٦ - ١٢٢ من سورة النساء .

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون، وإجماعه إياه بالحجة، وإظهاره الآيات البيّنات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: أرسلنى الذى هو خالق كل شيء وربى ومليكى ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ فقال بعضهم: معناه: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أى: جدير بذلك وحرى به. وقالوا: و«الباء» و«على» يتعاقبان، يقال: «رَمِيتَ بالقوس» و«على القوس»، و«جاء على حال حسنة» و«بحال حسنة». وقال بعض المفسرين: معناه: حريص على ألا أقول على الله إلا الحق. وقرأ آخرون من أهل المدينة: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ﴾ بمعنى: واجب وحق عَلَىٰ ذلك، ألا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من عز جلاله وعظيم سلطانه.

﴿فَدَّ جَنَّتَكُمْ بَيْتَةً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أى: بحجة قاطعة من الله، أعطانيها دليلاً على صدقى فيما جتتكم به ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى: أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم؛ فإنهم من سلالة نبي كريم: إسرائيل، وهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ﴿قَالَ إِنَّ كُنتَ بِآيَةِ فَاتٍ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أى: قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لئراها، إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهَا إِذَا هِيَ تَعْبَانُ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

قال ابن عباس فى قوله: ﴿تَعْبَانُ مُبِينٌ﴾: الحية الذكر. وكذا قال السدى، والضحاك.

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ إِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أى: أخرج يده من درعه بعد ما أدخلها فيه، فخرجت بيضاء تتلالا من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِيَّاهُ فَتَخْرُجُ بَيْضَاءُ مِنْ ظُهُورِهِ﴾ الآية الأخرى [طه: ٢٢].

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ فَأَمَّا ذَا نَأْمُورٍ ﴿١١٠﴾﴾

أى: قال الملأ - وهم الجمنهور والسادة - من قوم فرعون، موافقين لقول فرعون فيه، بعد ما رجع إليه روعه، واستقر على سريره مملكته بعد ذلك، قال للملأ حوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾، فوافقوه وقالوا كملكته، وتشاوروا فى أمره، وكيف يصنعون فى أمره؟ وكيف تكون حيلتهم فى إطفاء نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبه وافتراءه، وتخوفوا من معرفته أن يستميل الناس إليه بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم. والذى خافوا منه وقموا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُرِي فِرْعَوْنَ هَامِئاً وَقَدْ هَمَّتْ مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] فلما تشاوروا فى شأنه، واتتمروا فيه، اتفق رأيهم على ما حكاها الله تعالى عنهم فى قوله تعالى:

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَسَاءُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا نُورُكَ يَكْفِي سَجِيرَ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾

قال ابن عباس: ﴿أَرْجِهْ﴾: أخره. وقال قتادة: أحبسه ﴿وَأَرْسِلْ﴾ أى: ابعث ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾ أى: فى الأقاليم ومدائن ملكك ﴿حَاشِرِينَ﴾ أى: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم. وقد كان السحر فى زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً. واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم، أن ما جاء به

موسى، عليه السلام، من قبيل ما تُشعَبُ به سحرتهم؛ فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من الينابيع، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿اجْتِنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى . فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَعْمَ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى . قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْتَةِ وَأَنْ بِحُشْرِ النَّاسِ ضَحَى . قَوْلِي لِفِرْعَوْنَ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه: ٥٧- ٦٠] وقال تعالى هاهنا:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ فَرَعُونَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٥٧﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى، عليه السلام: إن غلبوا موسى لِيُثْبِتَهُمْ وليعطينهم عطاء جزيلًا. فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا، ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله .

﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ أِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿٥٩﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءَ وَبِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿٦٠﴾﴾

هذه مباررة من السحرة لموسى، عليه السلام، في قولهم: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ أى: قَبْلَكَ . كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَىٰ مِنَ الْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥] . فقال لهم، عليه السلام: ﴿أَلْقُوا﴾ أى: انتم أولا قبل : الحكمة فى هذا - والله أعلم - ليرى الناس صنيمهم ويتاملوه، فإذا فرغ من بهرجهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلى بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع فى النفوس، وكذا كان. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أى: خيلوا إلى الابصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَيْبُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى . فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . وَالَّذِي مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سَاحِرٍ وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٦ - ٦٩] .

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٦١﴾ فَوَقَّ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿٦٢﴾ فَخَلَبُوا هَذَاكَ وَأَنقَلَبُوا صُغِيرِينَ ﴿٦٣﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ سَجْدِينَ ﴿٦٤﴾ قَالُوا أَمْ نَرَىٰ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى، عليه السلام، فى ذلك الموقف العظيم، الذى فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقى ما فى يمينه وهى عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أى: تاكل ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أى: ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل. قال ابن عباس: فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقتهم، فعرفت السحرة أن هذا شئ من السماء، وليس هذا بسحر، فخروا سجدا وقالوا: ﴿أَمْ نَرَىٰ رَبَّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ .

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُ بِئِهِ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكَ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا ءَأَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ لَأَقْطَعَنَّ ءَأَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٦٩﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَأَمَّنَّا بِرَبِّنَا لِمَا جَاءَنَا رَبَّنَا أَوْفِعْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوْفِقًا ﴿٧٠﴾﴾

مُسْلِمِينَ ﴿١٢٧﴾

يخبر تعالى عما توعد به فرعون، لعنه الله، السحرة لما آمنوا بموسى، عليه السلام، وما أظهره للناس من كيد ومكره فى قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أى: إن غلبه لكم فى يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، كقوله فى الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧٠]، وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذى قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى، عليه السلام، بمجرد ما جاء من أمدين دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون فى مدائن ملكه ومعاملته سلطته، فجمع سحرة مفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، بمن اختار هو والملا من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالمطاء الجزيل. وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور فى مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون. وموسى، عليه السلام، لا يعرف أحدا منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تسترا وتديسا على رعاع دولته وجهنتهم، كما قال تعالى: ﴿فَاتَّخَفَ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فإن قوما صدقوه فى قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [التارعات: ٢٤] من أجهل خلق الله وأضلهم !!

وقوله: ﴿فَخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أى: تجتمعوا انتم وهو، وتكون لهم دولة وصوله، وتخرجوا منها الاكابر والروساء، وتكون الدولة والتصرف لكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى: ما اصنع بكم.

ثم فر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ بمعنى: يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿وَأَصْلِبَنَّكُمْ أَجْمِينَ﴾. وقال فى الآية الأخرى: ﴿لِي جَذْوَعُ الشَّجَلِ﴾ [طه: ٧١] أى: على الجذوع.

وقول السحرة: ﴿إِنَّا إِلَهِي رَبَّنَا مُتَقَلِّبُونَ﴾ أى: قد تحققنا أننا إليه راجعون، وعذابه أشد من عذابك، ونكاله على ما تدعونا إليه وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله؛ ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَلْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أى: عمنا بالصبر على دينك، والثبات عليه، ﴿وَتَوَلَّأْنَا مُسْلِمِينَ﴾ أى: متابعين لنبيك موسى، عليه السلام. وقالوا لفرعون: ﴿فَأَفْضِرْ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنُبْرِئَنَّكَ مِنْ خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى. إِنَّهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى. وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه: ٧٢ - ٧٥]، فكانوا فى أول النهار سحرة، فصاروا فى آخره شهداء برة.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْدَرُونَ أَمْ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَيَذُرُونَ وَعَالِمَتِكَ قَالَ سَنَقِيلُ أبنَاءَهُمْ وَنَسْتَجِي. نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا بِاللَّهِ لَوَارِثُونَ﴾ ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٧﴾

يخبر تعالى عما قالا عليه فرعون وملؤه، وما أضمره لموسى، عليه السلام، وقومه من الأذى

والبنضة: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ أى: لفرعون ﴿ أَتَنْزُومُونَ وَقَوْمَهُ ﴾ أى: أتدعهم ﴿ لِيُقْسِدُوا لِي الْأَرْضَ ﴾ أى: يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك ! يا الله العجب ! صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه! إلا إن فرعون وقومه هم المفسدون، ولكن لا يشعرون؛ ولهذا قالوا: ﴿ وَيَذُرْكَ وَأَهْلِكَ ﴾ قال بعضهم: «الوار» هنا حالية، أى: أتذره وقومه يفسدون وقد ترك عبادتك؟! وقال آخرون: هى عاطفة، أى: أتدع موسى يصنع هو وقومه من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى تركه آلهتك. وقرا بعضهم: «إلاهتك» أى: عبادتك، وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد وغيره . وعلى القراءة الأولى قال بعضهم: كان لفرعون إله يعبد. قال الحسن البصرى: كان لفرعون إله يعبد فى السر .

فاجابهم فرعون فيما سأله بقوله: ﴿ سَتَقْبِلُ آتَانَهُمْ وَتَسْتَحْيِي نَسَاءَهُمْ ﴾ ، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع ، وقد كان نكل بهم به قبل ولادة موسى، عليه السلام، حذرا من وجوده، فكان خلاف ما رآه وضد ما قصده فرعون . وهكذا عومل فى صنعه أيضا لما أراد إذلال بنى إسرائيل وقهرهم ، فجاء الأمر على خلاف ما أراد: اعزهم الله وأذله، وأرهم أنفه، واغرقه وجنوده .

ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبنى إسرائيل ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ﴾ ، ووعدهم بالعاقبة، وأن الدار ستصير لهم فى قوله: ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْعَاقِبَةُ لِمُتِّحِينَ . قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أى: قد جرى علينا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى، ومن بعد ذلك. فقال منبها لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه فى ثانى الحال: ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ عُدُوكُمْ وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ ، وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النعم .

﴿ وَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الشَّرَابِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ . وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ . أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكُمْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ أى: اخترناهم وامتحانهم وابتليانهم ﴿ بِالْسِّنِينَ ﴾ وهى سنى الجوع بسبب قلة الزروع ﴿ وَنَقَصْنَا مِنَ الشَّرَابِ ﴾ قال مجاهد: وهو دون ذلك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ . فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ ﴾ أى: من الخصب والرزق ﴿ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾ أى: هذا لنا بما نستحقه ﴿ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أى: جذب وقحط ﴿ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ أى: هذا بسببهم وما جازوا به ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس: إلا من قبل الله .

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا عَنَّ لَكَ يَمْؤُومِينَ ﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ . إِنِّي مُمْتَلِكٌ فَمَا تُسْكِبُوهَا فَكُلْتُمْهَا وَكَانُوا قَوْمًا تُجْرِمُونَ ﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشِفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ يَلْفُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴾

هذا إخبار من الله، عز وجل، عن تمرد قوم فرعون وعنومهم، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل فى قولهم: ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا عَنَّ لَكَ يَمْؤُومِينَ ﴾ يقولون: أى آية جئتنا بها ودلالة

وحجة أمتها، رددناها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جنت به، قال الله تعالى: ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾. اختلفوا في معناه، فمن ابن عباس في رواية: كثرة الامطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار. وبه قال الضحاك بن مزاحم. وعن ابن عباس في رواية أخرى: هو كثرة الموت. وكذا قال عطاء. وقال مجاهد: ﴿الطُّوفَانَ﴾: الماء، والطاعون على كل حال. وقال ابن عباس في رواية أخرى: هو أمر من الله طاف بهم، ثم قرأ: ﴿لَطَّافٌ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [القلم : ١٩] .

وأما الجراد فمعروف مشهور، وهو مأكول، لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفور، قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد؟ فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات ناكل الجراد. وروى الشافعي، وأحمد بن حنبل، وابن ماجه عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد، والكبد والطحال». ورواه البيهقي. وروى أبو داود عن سلمان قال: سئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال: «أكثر جنود الله، لا أكله، ولا أحرمه». وإنما تركه، عليه السلام، لأنه كان يعافه، كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب، وأذن فيه. وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يشتهي ويحبه، فمن ابن عمر: أن عمر سئل عن الجراد فقال: لبيت أن عندنا منه قفعة^(١) أو قفتين نأكله. وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: كان أرواح النبي ﷺ يتهادين الجراد على الأطباق.

وأما ﴿الْقُمَّلُ﴾: فمن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الخنطة. وعنه أنه الدبا - وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة. وعن الحسن وسعيد بن جبير: ﴿الْقُمَّلُ﴾: دواب سود صفار. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿الْقُمَّلُ﴾: البراغيث. وقال ابن جرير: ﴿الْقُمَّلُ﴾: جمع واحدها قُمَّلة، وهي دابة تشبه القمل، تأكلها الإبل، فيما بلغني. وقال زيد ابن أسلم: يعنى بالدم: الرفاف. رواه ابن أبي حاتم.

﴿فَأَنْتَمَنَّا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي أَسْمٍ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمغربَهَا أَلَيْسَ إِنَّ رَبَّنَا بِذِي الْإِسْمَةِ بَلْ بِمَا صَبَرُوا وَآوَدَّ مَرْفَأًا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا لِيُعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا - مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة - انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم، وهو البحر الذي فرقه لموسى، فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها.

وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون - وهم بنو إسرائيل - ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَلَنَمَكِّنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيهِمْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْتَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿كَمْ قَرْوَاتٍ مِنْ جِنَاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةً كَانُوا لَهَا فَاكِبِينَ. كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨]. وعن الحسن البصري وقتادة، في قوله: ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾ أي: بآياتها، يعني: الشام.

(١) القفعة - بفتح القاف وسكون الفاء: شيء كالقفعة، واسع الأسفل ضيق الأعلى.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ قال مجاهد وابن جرير: وهي قوله تعالى: ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتَفْضَلُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَتَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُبَيِّنَ لِفِرْعَوْنَ وَأَهْلِيهَا إِمْرًا وَيَجْعَلُهُمَا مُتَمِّمًا مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَدَعَرْنَا مَا كَانَ يصنع فرعون وقومه﴾ أي: وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع، ﴿وَمَا كَانُوا يَفْرُسُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يبنون.

﴿وَجَوَازِنًا بِيَدِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَمْكفُونَ عَلَىٰ أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ تَهْمَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَيَطِغُونَ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

يخير تعالى عما قاله جهلة بنى إسرائيل لموسى، عليه السلام، حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿فَأَتَوْا﴾ أي: فمروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَمْكفُونَ عَلَىٰ أَصْنَانٍ لَهُمْ﴾ قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين . وقيل: كانوا من لحم . قال ابن جرير: وكانوا يعبدون اصناما على صور البقر، فلهدا اثار ذلك شبهة لهم فى عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَهْمَلُونَ﴾ أي: تمهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن يتزه عنه من الشرك والشيل . ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ﴾ أي: هالك ﴿وَيَطِغُونَ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ . وروى ابن جرير عن أبى واقد الليثى: أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين، قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: «ذات أنواط»، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط !! فقال: «قلتم والذى نفسى بيده، كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَهْمَلُونَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَيَطِغُونَ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾» (١) .

وروى الإمام أحمد عن أبى واقد الليثى قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة، فقلت: يا نبي الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما للكفار ذات أنواط ! وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها. فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ إنكم تكونون سنن من قبلكم» (٢) . ورواه ابن أبى حاتم، من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى، عن أبيه، عن جده مرفوعا .

﴿قَالَ أَغْيَرَ آتَمَهُ أَيْبِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِلَٰهَ أَيْمَانِكُمْ مِن مَّالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سَوْمَ الْمَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ لِّمَن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

يذكُرهم موسى، عليه السلام، بنعمة الله عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم، والنظر إليه فى حال هوانه وهلاكه، وغرقه ودماره. وقد تقدم تفسيرها فى البقرة (٣) .

(١) الطبرى (١٥٠٥٦ ، ١٥٠٥٧ ، ١٥٠٥٨) . وتفصيل تخريجه هناك .

(٢) المسند (٥ / ٢١٨ حلى) . (٣) عند الأيبين (٤٩ ، ٥٠) .

﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْتَهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ خَلْفِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿١٤٣﴾

يقول تعالى ممثنا على بنى إسرائيل بما حصل لهم من الهداية، بتكليمه موسى، عليه السلام، وإعطائه التوراة، وفيها أحكامهم وتفصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة. ثم أمره الله تعالى أن يكمل العشر أربعين.

وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثر على أن الثلاثين هي ذو القعدة، والعشر عشر ذى الحجة. قاله مجاهد، ومسروق، وابن جريج. وروى عن ابن عباس وغيره. فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى، عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فلما تم الميقات عزم موسى على الذهاب إلى الطور، كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنبَأَكُم مِّنْ عِبَادِكُمْ وَعَادَتِكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ الآية [طه: ٨٠]، فحيتذ استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد. وهذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون، عليه السلام، نبي شريف كريم على الله، وله وجاهة وجلالة، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِن نُنظِّرُ إِلَى الْجِبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا بَجَلْنَا رَبُّهُ لِلْجِبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَوِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحٰنَكَ بُنْتِ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٤٤﴾

يخبر تعالى عن موسى، عليه السلام، أنه لما جاء لميقات الله تعالى، وحصل له التكليم من الله، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ﴾.

وقد أشكل حرف «لن» هاهنا على كثير من العلماء؛ لأنها موضوعة لنفى التأييد، فاستدل به المعتزلة على نفى الروية في الدنيا والآخرة. وهذا أضعف الأقوال؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ. إِنْ رَأَوْهَا ظَاهِرَةً﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. وقوله تعالى إخباراً عن الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُورُونَ﴾ [الطغفنين: ١٥]. وقيل: إنها لنفى التأييد في الدنيا، جمعاً بين هذه الآية، وبين الدليل القاطع على صحة الروية في الدار الآخرة. وقيل: إن هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وقد تقدم ذلك في الانعام (١).

في الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى، عليه السلام: يا موسى، إنه لا يرانى حتى إلا مات، ولا يابس إلا تتلوه؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجِبَلِ جَهِتَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَوِقًا﴾. وروى الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو المثنى، معاذ بن معاذ العنبري، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجِبَلِ﴾: قال: قال هكذا - يعنى أنه

أخرج طرف المختصر - قال أحمد: أرانا معاذ، فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدره ضربة شديدة وقال: من أنت يا حميد؟! وما أنت يا حميد؟! يحدثني به أنس ابن مالك عن النبي ﷺ ، يقول: ما تريد إليه؟! ورواه الترمذى ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا تعرفه إلا من حديث حماد - ورواه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه - ورواه أبو محمد الحسن بن محمد الخلال ، وقال: هذا إسناد صحيح لا علة فيه .

وقال ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجِبَلِ﴾ قال: ما تجلَّى منه إلا قدر المختصر ﴿جَفَّةً دَكًّا﴾ قال: ترابا ﴿وَوَخَّرَ مُوسَىٰ صَخْبًا﴾ قال: مفضياً عليه . رواه ابن جرير . والمعروف أن «الصَّخْبَ» هو الغشى هاهنا، كما فسره ابن عباس وغيره، لا كما فسره قتادة بالموت، وإن كان ذلك صحيحاً في اللغة ، كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مِن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم بِقِيَامٍ يَتَخَفَتُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] ، فإن هناك قرينة تدل على الموت كما أن هنا قرينة تدل على الغشى، وهي قوله: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ ، والإفاقة لا تكون إلا عن غشى . ﴿قَالَ سُبْحَانكَ﴾ تنزيها وتمظيها وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات . وقوله: ﴿تَبَّتْ إِلَيْكَ﴾ قال مجاهد: أن أسالك الرؤية ﴿وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد: من بنى إسرائيل . واختاره ابن جرير . وفي رواية أخرى عن ابن عباس: ﴿وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه لا يراك أحد . وكذا قال أبو العالية: قد كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة . وهذا قول حسن له اتجاه .

وقال البخارى في صحيحه: قوله: ﴿وَوَخَّرَ مُوسَىٰ صَخْبًا﴾ فيه أبو سعيد وأبو هريرة، عن النبي ﷺ : فاما حديث أبي سعيد، فأسنده البخارى عن أبي سعيد الخدرى، قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه، فقال: يا محمد، إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم وجهي . قال: «ادعوه» . فدعوه ، قال: «لم لطمت وجهه؟» قال: يا رسول الله، إنى مررت باليهود فسمعتهم يقول: والذي اصطفى موسى على البشر . قال: قلت: وعلى محمد؟ فأخذتني غصبة ، فلطمته ، قال: «لا تخيرونى من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلى أم جورى بصعقة الطور» . ورواه مسلم وأبو داود .

وأما حديث أبي هريرة فروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: استب رجلان: رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين . وقال اليهودى: والذي اصطفى موسى على العالمين، فغضب المسلم على اليهودى فلطمه، فأتى اليهودى رسول الله ﷺ ، فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ ، فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ : «لا تخيرونى على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى مسح بجانب العرش، فلا أدري أكان ممن صعق فافاق قبلى، أم كان ممن استثناء الله، عز وجل» . أخرجاه في الصحيحين .

والكلام في قوله، عليه السلام: «لا تخيرونى على موسى»، كالكلام على قوله: «لا تفضلونى على الأنبياء ولا على يونس بن متى»، قيل: من باب التواضع . وقيل: قيل أن يعلم بذلك . وقيل: نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضبية والتعصب . وقيل: على وجه القول بمجرد الرأى والشهى، والله أعلم .

وقوله: «فإن الناس يصعقون يوم القيامة» - الظاهر أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة، يحصل أمر يصعقون منه، والله أعلم به. وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، وتجلي للخلائق الملك الديان، كما صعق موسى من تجلي الرب تبارك وتعالى، ولهذا قال، عليه السلام: «فلا أدري أفاق قبلي أم جورى بصعقة الطور» .

﴿ قَالَ يَسْمُوعَىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَةٍ فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا حُذْوًا يَا حَسْبًا سَأُورِيكَ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على عالمي زمانه برسالاته وكلامه، ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين؛ ولهذا اختصه تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من اتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل، عليه السلام، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن، عليه السلام؛ ولهذا قال له: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ﴾ أي: من الكلام والمناجاة ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: على ذلك، ولا تطلب ما لا طاقة لك به.

ثم أخير تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣] . وقيل: الألواح أعطيتها موسى قبل التوراة، فالله أعلم. وعلى كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤيا ومنع منها، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزم على الطاعة ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا حُذْوًا يَا حَسْبًا﴾ : قال ابن عباس : أمر موسى - عليه السلام - أن يأخذ بأشد ما أمر قومه.

وقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: سترون عاقبة من خالف أمري، وخرج عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتهاب . قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، كما يقول القائل لمن يخاطبه: «سأريك غدا إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري»، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره . نقل معنى ذلك عن مجاهد، والحسن البصري . وقيل: معناه ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: من أهل الشام، وأعطيتكم إياها . وقيل: منازل قوم فرعون، والأول أولى، والله أعلم؛ لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه، والله أعلم.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كَلِمًا أَنِيًّا لَا يُوْثِقُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالزَّيْبُ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ آبَائِهِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: سأمع فهم الحجج والادلة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَنَفَلَبْ أَفْذَنَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقال بعض السلف: لا ينال العلم حقي ولا مستكبر. وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة، بقى في ذل الجهل أبدا. وقال سفيان بن عيينة في قوله: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ آبَائِهِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال: انزع عنهم فهم القرآن، واصرفهم عن آياتي. قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الامة. قلت: ليس هذا بلازم؛ لان ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل امة، ولا فرق بين أحد واحد في هذا، والله اعلم.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي: وإن ظهر لهم سبيل الرشدا، أي: طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلا.

ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: كذبت بها قلوبهم، ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي: لا يعلمون شيئا مما فيها.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات، حبط عمله. وقوله: ﴿هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنما يجازيهم بحسب أعمالهم التي اسلفوها، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وكما تدين ندان (١).

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدَ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْتَحِنَّا رَبَّنَا وَنَعْفِرْ لَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بنى إسرائيل في عبادتهم العجل، الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط، الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلا، ثم القى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل، عليه السلام، فصار عجلا جسدا له خوار، و«الخوار» صوت البقر. وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى ليقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخبارا عن نفسه الكريمة: ﴿قَالَ إِنَّا قَدْ قَتَلْنَا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَحْلَمَهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]. وقد اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحما ودما له خوار؟ أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقرة على قولين، والله أعلم. قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل، وذمهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء.

(١) هنا بهامش المخطوطة المتبقية ما نصه: «آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأعراف، من غط المؤلف عفا الله عنه».

ومنيكه، أن عبدوا معه عجلًا جسداً له خُوَارٌ ولا يكلمهم، ولا يرشدهم إلى خير. ولكن غطى على أعين بصائرهم عَمَى الجَهْل والضلال .

كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبي داود عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : «حبك الشيء يعنى ويصم»^(١).

وقوله: ﴿وَلَمَّا سَفِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أى: ندموا على ما فعلوا، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ وقرأ بعضهم: «لئن لم ترحمنا بالثاء المثناة من فوق، «ربنا» منادى، «وتغفر لنا»، «لنكونن من الغاسرين» أى: من الهالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل .

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَدِيءِ أَعْمَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْمَلْنِي مَعَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَتِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

يخبر تعالى أن موسى، عليه السلام، رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف . قال أبو الدرداء «الأسف»: أشد الغضب. «قال بئسما خلفتوني من بدئي» يقول: بش ما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم .

وقوله: ﴿أَعْجَبْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يقول: استمجلتم مجئى إليكم، وهو مقدر من الله تعالى . وقوله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ لى هذا دلالة على ما جاء فى الحديث: «ليس الخبر كالمائة»^(٢). ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً .

وقوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قد قصر فى نهيهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلَا تَتَّبِعَنِ الْأَفْصَىٰ أَمْرِي . قَالَ يَبَتُّؤُمْ لَا أَخَذُ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٢ - ٩٤]، وقال هاهنا: «ابن أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْمَلْنِي مَعَ الظَّالِمِينَ» أى: لا تسوقنى مساقمهم، ولا تجملنى معهم . وإنما قال: «ابن أُمَّ»؛ ليكون أرقً وأجمل عند، وإلا فهو شقيقه لآبيه وأمه .

فلما تحقق موسى، عليه السلام، براءة ساحه هارون عليه السلام ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونَ مِنْ قَبْلِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠] فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَتِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ . وروى ابن حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : « يرحم الله موسى، ليس المعانين كالخبر؛ أخبره ربه، عز وجل، أن قومه فتنوا بعله، فلم يلق الألواح، فلما رأهم وعابنهم ألقى الألواح »^(٣) .

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٤) من سورة البقرة .
 (٢) رواه أحمد فى المسند مطولاً ومختصراً (١٨٤٢ ، ٢٤٤٧) من حديث ابن عباس . ورواه الحاكم مطولاً (٢ / ٣٢١) وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي . ورواه ابن حبان فى صحيحه (٢ / ٢٩٨) (من المخطوطة المصورة) . وسننى الرواية المطولة فى آخر تفسير هذه الآية .
 (٣) هذه هى الرواية للطولة للخبر السابق . وهى فى المسند (٢٤٤٧) . ونسبها السيوطى (٣ / ١٢٧) أيضا لعبد بن حميد، والبيزار والطبرانى ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَأَمْسُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قتل بعضهم بعضاً، كما تقدم في سورة البقرة: ﴿ قُتِلُوا إِلَى بَارِكُمْ فَأَقْتَلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِكُمْ قَبَابٌ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٥٤] . وأما الذلة فاعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا .

وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ نائلة لكل من افتري بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرشد ، متصلة من قبله على كضيه، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على اكتافهم، وإن هملجت بهم البغلات، وطلقت بهم البراذين . وهكذا روى أيوب السخيتاني، عن أبي قلابة الجرمي، أنه قرأ هذه الآية: ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ قال: هي والله لكل مفتري إلى يوم القيامة . وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل .

ثم نية تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق؛ ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَأَمْسُوا إِنَّ رَبَّكَ ﴾ أي: يا محمد، يا رسول التوبة ونبي الرحمة، ﴿ مِن بَعْدِهَا ﴾ أي: من بعد تلك الفعلة ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وروى ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه سئل عن ذلك ، يعنى عن الرجل يزنى بالمرأة، ثم يتزوجها ؟ فتلا هذه الآية: ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَأَمْسُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، فتلاها عبد الله عشر مرات، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها (١) .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُم لِربِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ ﴾ أي: غضبه على قومه ﴿ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ ﴾ أي: التي كان القاهما من شدة الغضب على عبادتهم العجل، غيرة لله وغضبا له ﴿ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُم لِربِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ . فقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعد ما القاهما وجد فيها ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ . ﴿ لِلَّذِينَ هُم لِربِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾: ضمن الرهبة معنى الخضوع؛ ولهذا عدّها باللام .

﴿ وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذتُّهُمُ الرِّجْفَةَ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَنُتَلِّكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ إِنَّا إِذْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَابْنُكَ فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ ﴾

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً، فاختار سبعين

(١) إسناده ابن أبي حاتم إلى ابن مسعود إسناده صحيح .

رجلا فيربز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دعواُ الله قالوا: اللهم اعطنا ما لم تعط أحدا قب لنا ولا تعطه أحدا بعدنا ! ففكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة، قال موسى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَهَيْئِ﴾ الآية. وقال السدي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعدا، ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ على عينيه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته، فإناه. فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَهَيْئِ﴾.

وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وابن جرير: إنما أخذتهم الرجفة؛ لأنهم لم يزالوا قومهم في عبادتهم العجل، ولا نهوهم، ويتوجه هذا القول بقول موسى: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ إِذْ﴾. وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا لَيْسَتُكَ﴾ أي: ابتلاؤك وامتحانك واختبارك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وغير واحد من علماء السلف والخلف. ولا معنى له غير ذلك؛ يقول: إن الأمر إلا أمرك، وإن الحكم إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضيع لمن هديت، ولا معطي لمن منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر.

وقوله: ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾: العفو هو: الستر، وترك المواخذة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع العفو، يراد بها ألا يوقعه في مثله في المستقبل ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ أي: لا يغفر الذنوب إلا أنت ﴿وَأَكْبَرْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾. ما ذاك الفصل الأول من الدعاء في دفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود ﴿وَأَكْبَرْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة. ﴿إِنَّا هَدَيْتَنَا إِلَيْكَ﴾ أي: تبنا ورجعنا وأبنا إليك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد وغير واحد. وهو كذلك لغة.

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَفَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى مجيبا لموسى في قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا لَيْسَتُكَ﴾ الآية، قال: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: افعل ما أشاء، وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك، سبحانه لا إله إلا هو.

وقوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾: آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧]. وروى الإمام أحمد عن جندب - هو ابن عبد الله الجعفي، رضى الله عنه - قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقّلها، ثم صلى خلف رسول الله ﷺ. فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها، ثم ركبها ! ثم نادى: اللهم، ارحمني ومحمدا، ولا تشرك في رحمتنا أحدا ! فقال رسول الله ﷺ: «أتقولون هذا أضل أم بعيره؟ ألم تسمعوا ما قال؟!» قالوا: بلى. قال: «لقد حظرت رحمة واسعة؟ إن الله، عز وجل، خلق مائة رحمة، فأنزل رحمة واحدة يتعاطف بها الخلق؛ جنبها وإنساها وبهاثمها، وأخر عنده تسعا وتسعين رحمة، أتقولون هو أضل أم بعيره؟!» . ورواه أبو داود (١).

للأمين، أنت عبدى ورسولى، اسمك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به قلوبا غُلُفا، وأذانا صماً، وأعيناً صمياً، قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسأته عن ذلك؟ فما اختلفا حرفاً، إلا أن كعباً قال بلغته، قال: «قلوباً غُلُوفياً وأذناً صمومياً وأعيناً عمومياً». وقد رواه البخارى نحوه، وزاد بعد قوله: «ليس بفظ ولا غليظ»: «ولا صحاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسببة السببة، ولكن يعفو ويصفح» (١). وذكر حديث عبد الله بن عمرو، ثم قال: ويقع فى كلام كثير من السلف إطلاق «التوراة» على كتب أهل الكتاب. وقد ورد فى بعض الأحاديث ما يشبه هذا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ هذه صفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله، عليه السلام، لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعبها سمعك، فإنه خير تؤمر به أو شر تُنهى عنه. ومن أهم ذلك وأعظمه، ما بعث الله تعالى به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهى عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وروى الإمام أحمد عن أبى حميد وأبى أسيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فانا أولاكم به. وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم، وتنفرد منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد، فانا أبعدمكم منه». هذا حديث جيد الإسناد، لم يخرجها أحد من أصحاب الكتب. وروى الإمام أحمد عن على، قال: إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثاً، فظنوا به الذى هو الهدى، والذى هو أهيا، والذى هو اتقى (٢).

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْغَبَاثِ﴾ أى: يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من الجحائر، والسوائب، والوصائل، والحامى، ونحو ذلك، مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، ويحرم عليهم الغباث. قال ابن عباس: كل لحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المأكَل التى حرمها الله تعالى. قال بعض العلماء: كل ما أحل الله تعالى من المأكَل فهو طيب نافع فى البدن والدين، وكل ما حرمه، فهو خبيث ضار فى البدن والدين.

وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقيح العقليين، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضوع له. وكذا احتج بها من ذهب من العلماء إلى أن المرجع فى حل المأكَل التى لم ينص على تحليلها ولا تحريمها، إلى ما استطابته العرب فى حال رفاهيتها، وكذا فى جانب التحريم إلى ما استخشته. وفيه كلام طويل أيضاً.

وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أى: إنه جاء بالتيسير والسماحة، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة» (٣). وقال ﷺ

(١) الطبرى (١٥٢٢٥ - ١٥٢٢٧). ورواه أحمد فى المسند (٦٦٢٢) وفصلنا تخريجه هناك.

(٢) المسند (٩٨٥).

(٣) مضى مختصراً عند الآية: ٢٨١ من سورة البقرة ومضى كاملاً عند الآية: ٣١ من سورة الاعراف.

لاميريه معاذ وأبي موسى الأشعري، لما بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطوعا ولا تختلفا». وقال صاحبه أبو برة الأسلمي: صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره. وقد كانت الأمم الذين قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها، وسهلها لهم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاور لأمته ما حدثت به أنفسها، ما لم تقل أو تعمل». وقال: «رفع عن امتي الخطأ والسيان وما استكروها عليه»؛ ولهذا أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِئْنَا أَوْ نَسِينَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا وَلَا تُحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» [البقرة: ٢٨٦]. وثبت في صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه: «قد فعلت، قد فعلت».

وقوله: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ» أي: عظموه ووقروه، وقوله: «وَاتَّبَعُوا النَّوْرَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ» أي: القرآن والوحي الذي جاء به مبلغا إلى الناس «أَتُوبُكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» أي: في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ يَتَّبِعْتُمُ النَّاسَ إِنْ رَسُوهُ لِيُتَّبِعُوا اللَّهَ إِيَّاكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

يقول تعالى لبيته ورسوله محمد ﷺ: «قُلْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وهذا خطاب للاحمر والاسود، والعربى والعجمى ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال تعالى: «قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ» [الانعام: ١٩]، وقال تعالى: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ» [هود: ١٧]، وقال تعالى: «وَقُلِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأَمِينَ ؕ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ افْتَدَوْا ۖ إِنَّ تَوَلَّوْا فَمَا نَعْلَمُ عَلَيْكَ الْبَلَاغَ» [آل عمران: ٢٠]، والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة: أنه، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى الناس كلهم. روى البخارى عن أبي الدرداء، قال: كانت بين أبي بكر وعمر محاوراة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضبا، فاتبعه أبو بكر فسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابيه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء: ونحن عنده، قال رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» أي: غاضب وحاقد. قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ، وقصص على رسول الله ﷺ الخبر. قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لانا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لى صاحبى؟ إني قلت: يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعا، فقلتكم: كذبت. وقال أبو بكر: صدقت». انفرد به البخارى. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلى - ولا أقوله فخرا: بعثت إلى الناس كافة: الاحمر والاسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى، وجعلت لى الارض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة فأخترتها لأمته يوم القيامة، فهى لمن لا يشرك بالله شيئا». إسناده جيد، ولم يخرجوه^(١). روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن

(١) المسند (٢٧٤٢). وهو فى مجمع الزوائد (٢٥٨ / ٨) ونسبه أيضا للبخارى والطبرانى بنحوه، وقال: «ورجال أحمد»

جده، أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، قام من الليل يصلى، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أعطيت الليلة خمسا ما أعطيهن أحد قبلي، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة، وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر للمضى رعبا، وأحلت لى الغنائم أكلها، وكان من قبلي يعظمون أكلها، كانوا يحرقونها، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، وإنما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت، وكان من قبلي يعظمون ذلك، إنما كانوا يصلون فى بيهم وكناالسهم، والخامسة هى ما هى، قيل لى : سل، فإن كل نبي قد سأل. فأخبرت مسألتي إلى يوم القيامة، فهى لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله». إنسانه جيد قوى أيضا ولم يخرجوه (١). وروى أيضا عن أبى موسى الأشعري، عن رسول الله ﷺ قال: «من سمع بى من أمتى أو يهودى أو نصرانى، فلم يؤمن بى، لم يدخل الجنة». وهذا الحديث فى صحيح مسلم من وجه آخر، عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى رجل من هذه الأمة: يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار». وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة: يهودى أو نصرانى، ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار». تفرد به أحمد. وروى الإمام أحمد عن أبى موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا: بعثت إلى الأحمر والأسود، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لمن كان قبلى، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة - وليس من نبي إلا وقد سأل الشفاعة، وإنى قد اختبأت شفاعتى، ثم جعلتها لمن مات من أمتى لم يشرك بالله شيئا». وهذا أيضا إنسانه صحيح، ولم أرى خروج، والله أعلم، وله مثله من حديث ابن عمر بسند جيد أيضا. وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، فأما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم، ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة».

وقوله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ صفة الله تعالى فى قوله: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ أى: الذى أرسلنى هو خالق كل شىء وربى ومليكه، الذى بيده الملك والإحياء والإماتة، وله الحكم.

وقوله: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾: أخبرهم أنه رسول الله إليهم، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ أى: الذى وعدتم به وبشرتم به فى الكتب المتقدمة، فإنه منعت بذلك فى كتبهم؛ ولهذا قال: ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أى: يصدق قوله عمله، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿وَأَنْبِئُوهُ﴾ أى: اسلكوا طريقه واقتضوا أثره ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى: إلى الصراط المستقيم.

﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَيَذُوبُونَ بِهٖ﴾

- رجال الصحيح، غير يزيد بن أبى زياد، وهو حسن الحديث.

(١) السنن (٧٠٦٨). وذكره الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٣٦٧) مختصرا قليلا، وقال: «رواه أحمد، ورجالها ثقات».

يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويمدلون به، كما قال تعالى: ﴿مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتَ اللَّهِ أَنَّى أُنزِلَ إِلَيْهِمْ وَأَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ وَمَا نُزِّلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْفَعُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمناً قَبِلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا بَدَأَ يُنزلُ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ الآية [البقرة: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُنزلُ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكَرُونَ ويزيدهم خشوعاً﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَفَى عَشْرَةَ أَسْبَاباً أَمْسَأُوا أَوْحِينَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ رَأَىٰ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَنَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿وَأذَقُوا حَيْثُ شِئْتُمْ وَرَوَّلُوا حِطَّةً وَأَدْخَلُوا الْآبَابَ سُجَّداً نَفَعْنَا لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ سَخِرْنَا مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنْ السَّمَاءِ يَمَاسُكُونَ﴾ ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ حَيْثُ شِئْتُمْ﴾

تقدم تفسير هذا كله في سورة «البقرة»، وهي مدنية، وهذا البياق مكى، ونبهنا على الفرق بين هذا البياق وذاك بما أغنى عن إعادته، والله الحمد والمنة .

﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْبُدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا تَأْتِيهِمْ إِلَّا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ﴾

هذا السياق هو بسط لقروله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ لَقْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥] ، يقول تعالى، لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَأَسْأَلْتَهُمْ﴾ أى: وأسأل هؤلاء اليهود الذين يحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم؛ لكلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم. وهذه القرية هي «أيلة»، وهي على شاطئ بحر القلزم. قال ابن عباس في قوله: ﴿وَأَسْأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ﴾ قال: هي قرية يقال لها «أيلة» بين مدين والطور. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وقتادة . وقال عبد الله بن كثير القارئ: سمعنا أنها أيلة. وقيل: هي مدين، وهو رواية عن ابن عباس .

﴿إِذْ يَقُولُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أى: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا﴾ قال ابن عباس: أى ظاهرة على الماء. قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَجْرُونَ إِلَّا نَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ﴾ أى: نخبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائها عنهم في اليوم الحلال لهم صيده ﴿كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ﴾ نخبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يقول: بفسقهم

عن طاعة الله وخروجهم عنها . وهؤلاء قوم احتلوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الاسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطى الحرام . وقد روى الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطه عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود ، فتستحلوا محارم الله بأذى الحيل» . وإسناده جيد ، ويصحح الترمذى بمثل هذا الإسناد كثيراً .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَّهِ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْزِيهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدِرَةٌ لِّنَا مِنْ رَبِّكَزُ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ اتَّبَعَآلَّذِينَ يَبْهَتُونَ عَنِ السُّوْرِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهَوُّا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت للحلور، واحتلوا على اصطياد السمك يوم السبت، كما تقدم بيانه في سورة البقرة. وفرقة نهت عن ذلك، وانكرت واعتزلتهم. وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمتكررة: ﴿لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَّهِ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْزِيهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة في نهيك إياهم؟ قالت لهم المتكررة: ﴿مَعْدِرَةٌ لِّنَا مِنْ رَبِّكَ﴾ . قرأ بعضهم بالرفع، كأنه على تقدير: هذا معذرة . وقرأ آخرون بالنصب، أي: نفعل ذلك ﴿مَعْدِرَةٌ لِّنَا مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ﴾ يقولون: ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويشركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة، ﴿الَّذِينَ يَبْهَتُونَ عَنِ السُّوْرِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾، فنص على نجاة الناميين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكنين؛ لأن الجزء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيما فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين أو من الناجين؟ على قولين .

وقال ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَّهِ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْزِيهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة، يقال لها: «أيلة»، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً في ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها. فمضى على ذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنتهم طائفة وقالوا: تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم؟! فلم يزدادوا إلا غياً وعتواً، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاية: تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب ﴿لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَّهِ مُهْلِكُهُمْ﴾، وكانوا أشد غضبا لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: ﴿مَعْدِرَةٌ لِّنَا مِنْ رَبِّكَ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ﴾، وكل قد كانوا يبهتون، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَّهِ مُهْلِكُهُمْ﴾، والذين قالوا: ﴿مَعْدِرَةٌ لِّنَا مِنْ رَبِّكَ﴾، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان، فجعلهم قردة. وقال عكرمة، عن ابن عباس في الآية، قال: ما أدرى أنها الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَّهِ مُهْلِكُهُمْ﴾، أم لا؟ قال: فلم أرل به حتى عرفته أنهم قد لجوا، فكساني حلة .

وقد قدمنا في سورة « البقرة » من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية، والله الحمد .
القول الثاني: أن الساكنين كانوا مع الهالكين .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ : فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا .
و «بئس» فيه قراءات كثيرة، ومعناه في قول مجاهد: الشديد ، وفي رواية: اليم . وقال قتادة: موجه .
والكل متقارب، والله اعلم . وقوله: ﴿ خَاسِئِينَ ﴾ أى: ذليلين مهانين .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبَيِّنَنَّ عَلَيْنَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُؤُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعٌ
الْعَقَابُ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ تَأَذَّنَ ﴾ : تَفَعَّلَ مِنَ الْأَذَانِ ، أَيْ : أَعْلَمَ ، قَالَ مُجَاهِدٌ . وَقَالَ غَيْرُهُ : أَمَرَ . وَفِي قُوَّةِ الْكَلَامِ مَا يُفِيدُ
مَعْنَى الْقَسْمِ مِنْ هَذِهِ اللَّفْظَةِ ، وَلِهَذَا أُتْبِعَتْ بِاللَّامِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لِيُبَيِّنَنَّ عَلَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ : عَلَى الْيَهُودِ ﴿ وَإِنَّ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُؤُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ عَصْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَ اللَّهِ وَشُرْعَهُ وَاحْتِيَالِهِمْ عَلَى
الْمَحَارِمِ . فَيُقَالُ : إِنَّ مُوسَى ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ضَرَبَ عَلَيْهِمُ الْخِرَاجَ سَبْعَ سِنِينَ ، وَقِيلَ : ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ،
وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ الْخِرَاجَ . ثُمَّ كَانُوا فِي قَهْرِ الْمُلُوكِ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ وَالْكَشْدَانِيِّينَ وَالْكَلْدَانِيِّينَ ، ثُمَّ
صَارُوا إِلَى قَهْرِ النَّصَارَى وَإِذْلَالِهِمْ لِإِيَاهُمْ ، وَأَخَذَهُمْ مِنْهُمْ الْجِزْيَةُ وَالْخِرَاجُ ، ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ ، وَمُحَمَّدٌ
ﷺ ، فَكَانُوا تَحْتَ قَهْرِهِ وَذَمَّتْهُ يَهُودُ الْخِرَاجِ وَالْجِزْيَةِ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هِيَ الْجِزْيَةُ ، وَالَّذِينَ
يَسُؤُهُمُ الْعَذَابُ : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأُمَّتُهُ ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ ، وَابْنُ
جُرَيْجٍ ، وَقَتَادَةُ .

قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم، عليه
السلام، وذلك آخر الزمان .

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ أَيْ : لِمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ شُرْعَهُ ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَيْ : لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ
وَأَتَابَ . وَهَذَا مِنْ بَابِ قَرْنِ الرَّحْمَةِ مَعَ الْعُقُوبَةِ ، لِثَلَا يَحْصُلُ الْيَأْسُ ، فَيَقْرَنُ تَعَالَى بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ
كثيراً؛ لتبقي النفوس بين الرجاء والخوف .

﴿ وَطَقَّنْتُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ
سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا
فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ حَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿ وَالَّذِينَ يَمْسُكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا
نُضِيعُ أَجْرَ الصَّالِحِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أئمة، أى: طوائف وفرقاً، كما قال : ﴿ وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ
اسْكُتُوا الْأَرْضَ إِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لُبِيفًا ﴾ [الإسراء: ١٠٤] . ﴿ مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴾ أَيْ :
فِيهِمُ الصَّالِحُ وَغَيْرُ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَتِ الْجَنُّ : ﴿ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَا دُونَ ذَلِكَ كَمَا طَرَفُ الْقِدْفِ ﴾ [الجن: ١١]
﴿ وَبَلَّوْنَهُمْ ﴾ أَيْ : اخْتَبَرْنَاهُمْ «بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ» أَيْ : بِالرَّخَاءِ وَالشَّدَةِ ، وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ ، وَالعَاقِبَةِ

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنفَلِكُمْ مَا فَعَلَ الْمُطِيلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكنهم، وأنه لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَلَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة - وفي رواية: على هذه الملة - فإبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم، عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم». وروى ابن جرير عن الحسن عن الأسود بن سريع من بني سعد، قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاشتد عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية؟» قال رجل: يا رسول الله، اليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إن خياركم أبناء المشركين، إلا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها». قال الحسن: ولقد قال الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية. قد رواه الإمام أحمد والنسائي، ولم يذكر قول الحسن البصرى واستحضاره الآية عند ذلك (١).

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم، عليه السلام، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به؟» قال: «فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بى شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بى». أخرجاه في الصحيحين. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس عن النبي ﷺ، قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم، عليه السلام، بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فشرها بين يديه، ثم كلمهم قبلاً، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا﴾ إلى قوله: ﴿الْمُطِيلُونَ﴾. ورواه النسائي. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفاً. وأخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد احتج مسلم بكثوم بن جبر. هكذا قال، ورواه آخرون عن ابن عباس موقوفاً فهذا أكثر وأثبت، والله أعلم (٢). وروى الطبري عن جوير قال: مات ابن للضحاك بن مزاحم،

(١) الطبري (١٥٣٥٢). وتفصيل تخريجه هناك. وقوله: «ذرياتهم» هو الثابت في المخطوطين، فهي القراءة التي اختارها الحفاظ ابن كثير بالجمع، وهي قراءة نافع وأبي عمر. وقرأ باقي السبعة: «ذريتهم» بالأفراد.

(٢) بين ابن كثير هنا من روجه موقوفاً على ابن عباس. والمرفوع في المسند (٢٤٥٥). وقد بينا هناك أن الموقوف لا يكون علة للمرفوع، والرفع زيادة من نقه، فهي مقبولة.

ابن ستة أيام. قال: فقال: يا جابر، إذا أنت وضعت ابني في لحده، فأبرز وجهه، وحلّ عنه عقده، فإن ابني مُجَلِّسٌ، ومسؤول. ففعلت به الذي أمر، فلما فرغت قلت: يرحمك الله، عمّ يُسأل ابنك؟ من يسأله إياه؟ قال: يُسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم. قلت: يا أبا القاسم، وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم؟ قال: حدثني ابن عباس: أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفل لهم بالآرزاق، ثم أعادهم في صلبه. فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به، نفعه الميثاق الأول. ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقرّ به، لم ينفعه الميثاق الأول. ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر، مات على الميثاق الأول، على الفطرة^(١). فهذه الطرق كلها مما تقوى ونَفَّ هذا على ابن عباس، والله أعلم^(٢). وروى الإمام أحمد عن مسلم بن يسار الجهني: أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَيِّ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدْنَاهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ الآية، فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ، سئل عنها؟ فقال: «إن الله خلق آدم، عليه السلام، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة، ويعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون». فقال رجل: يا رسول الله، فقيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة، استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة. وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار». وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي والترمذي وابن أبي حاتم وابن جرير. وأخرجه ابن حبان في صحيحه، قال الترمذي: وهذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع عمر. وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة. زاد أبو حاتم: وبينهما نعيم بن ربيعة^(٣).

وهذا الذي قاله أبو حاتم، رواه أبو داود عن مسلم بن يسار الجهني، عن نعيم بن ربيعة قال: كنت عند عمر بن الخطاب، وقد سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَيِّ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، فذكره. وقال الحافظ الدارقطني: وقد تابع عمر بن جعثم يزيد بن سنان أبو قرة الرهاوي، وقولهما أولى بالصواب من قول مالك، والله أعلم. قلت: الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر «نعيم بن ربيعة» عمداً؛ لما جهل حال نعيم ولم يعرفه، فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث، ولذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم؛ ولهذا يرسل كثيراً من المرفوعات، ويقطع كثيراً من الموصولات، والله أعلم.

روى الترمذي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم ويصفاً من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم فأعجبه

(١) الطبري (١٥٣٥٢). وإسناده جيد.

(٢) وهو في حكم المرفوع لأنه مما لا يعلم برأى. ثم الرفع زيادة من ثقة، فهو مقبول.

(٣) المسند (٣١١)، زهو في الموا (٩٢ / ٢) والترمذي (١٠٧ / ٤) وصحيح ابن حبان (٢٨٦ / ٢) (من المخطوطة المصورة). وذكره البخاري في التاريخ الكبير (٩٧ / ٤) (٩٧ / ٤).

وَيَبِصُّ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، مِنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ. قَالَ: رَبِّ، وَكَمْ جَعَلْتَ عَمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِينَ سَنَةً. قَالَ: أَيُّ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عَمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً. فَلَمَّا انْقَضَى عَمْرُ آدَمَ، جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ قَالَ: أَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ عَمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوْ لَمْ تَمَطْهَا ابْنُكَ دَاوُدُ؟ قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطَطَى آدَمَ فَخَطَطَتْ ذُرِّيَّتُهُ. ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يَخْرُجْهُ. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فَذَكَرَ نَحْوَهُ مَا تَقَدَّمَ، إِلَى أَنْ قَالَ: «ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: يَا آدَمُ، هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ. وَإِذَا فِيهِمْ الْأَجْزَمُ وَالْأَبْرَصُ وَالْأَعْمَى، وَأَنْوَاعُ الْأَسْقَامِ، فَقَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا بِذُرِّيَّتِي؟ قَالَ: كَيْ تَشْكُرَ نِعْمَتِي. وَقَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ، مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَرَاهِمُ أَظْهَرَ النَّاسِ نُورًا؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ يَا آدَمُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ». ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ دَاوُدَ، كَنَحْوِ مَا تَقَدَّمَ. وَعَنْ هِشَامِ بْنِ حَكِيمٍ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَبْدَأُ الْأَعْمَالَ، أَمْ قَدْ قُضِيَ الْقَضَاءُ؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَخَذَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ، ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ أَفْضَى بِهِمْ فِي كَفْبِهِ» ثُمَّ قَالَ: «هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ، فَأَهْلُ الْجَنَّةِ مَيِّسِرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ مَيِّسِرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ». رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ (١). وَرَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ، وَعُكْرَمَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ، سِيَاقَاتٍ تُوَافِقُ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ، أَكْتَفَيْنَا بِإِيرَادِهَا عَنِ التَّطْوِيلِ فِي تِلْكَ الْأَثَارِ كُلِّهَا، وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانَ.

فهذه الأحاديث دالة على أن الله، عز وجل، استخراج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار. وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، وفي حديث عبد الله بن عمرو، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، كما تقدم. ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المَجَاشَعِيُّ، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سَرِيحٍ. وقد فسّر الحسن البصري الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: «وَأَذْخَرَ لَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ»، ولم يقل: «مِنْ آدَمَ»، «مِنْ ظُهُورِهِمْ»، ولم يقل: «مِنْ ظُهُورِهِمْ»؛ أي: جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرنا بعد قرن، كما قال تعالى: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خِلاَفَ الْأَرْضِ» [الأنعام: ١٦٥]، وقال: «وَيَجْعَلُكُمْ خِلاَفَ الْأَرْضِ» [النمل: ٦٢]، وقال: «كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ» [الأنعام: ١٣٣].

قال: «وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى» أي: أوجدتهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً وقالاً. والشهادة تارة تكون بالقول، كقولهم: «قَالُوا أَشْهَدُنَا عَلَى أَنْفُسِنَا» الآية [الأنعام: ١٣٠]، وتارة تكون حالاً، كما قال تعالى: «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْبُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ» [التوبة: ١٧] أي: حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكما قال تعالى: «وَأَنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لِشَهِيدٍ» [المعاديات: ٧]، كما أن السؤال تارة يكون بالمقال، وتارة يكون بالحال، كما في قوله: «وَأَنَا كُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ» [إبراهيم: ٣٤]، قالوا: وبما يدل على أن المراد بهذا هذا: أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قاله، لكان كل أحد يذكره، ليكون حجة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده؟ فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءت به الرسل من هذا

وغيره. وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد؛ ولهذا قال: ﴿إِن تَقُولُوا﴾ أي: لتلا تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أي: التوحيد ﴿غَافِلِينَ﴾ أو تقولوا إنما أخزقنا آباءنا ﴿ الآية .

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَخْ مِنْهَا فٱتَّبَعَهُ الشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ الضَّٰلِّينَ ﴿١٧٥﴾
وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ ءَخَذَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وٱتَّبَعُ هَوَاهُ فَنَسُوهُ كَسَلِ ٱلْكَذِبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ
يَلْهَثُ أَوْ تَفْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا فَٱقْصِصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ
﴿١٧٦﴾ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا وَٱنْفُسِهِمْ كَافُوٓا۟ يُظَلِّمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

روى عبد الرزاق عن عبد الله بن مسعود، في قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَخْ مِنْهَا﴾ الآية، قال: هو رجل من بنى إسرائيل، يقال له: بلعم بن باعوراء. وقال ابن عباس: هو صيفى بن الراهب. وقال مالك بن دينار: كان من علماء بنى إسرائيل، وكان مجاب الدعوة، يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى إلى ملك مدّين يدعو إلى الله، فآتطعه وأعطاه، فتبع دينه وترك دين الشدائد، عليه السلام. وروى سفيان بن عيينة عن ابن عباس: هو بلعم بن باعوراء. وكذا قال مجاهد وعكرمة. وعن عبد الله بن عمرو في قوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾ الآية، قال: هو صاحبكم أمية ابن أبى الصلت. وقد روى من غير وجه، عنه وهو صحيح إليه، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبى الصلت يشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، ولكنه لم يتضح بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ، وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه، وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتلاحهم، ورث أهل بدر من المشركين بمراثاة بليغة، قبحه الله. وقد جاء في بعض الأحاديث: «أنه ممن آمن لسانه، ولم يؤمن قلبه»؛ فإن له أشماراً ربانية وحكما وفصاحة، ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام.

وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة، فإنما هو رجل من المتقدمين في زمان بنى إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف.

[وقوله: ﴿فَأَتَّبَعَهُ الشَّيْطَٰنُ﴾ أي: استحوذ عليه وغلبه على أمره، فمهما أمره امتثل وأطاعه؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الضَّٰلِّينَ﴾ أي: من المهالكين الخائزين البائسين] (١). وقد ورد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى عن جندب الجلى: أن حنيفة - يعنى ابن اليمان، حدثه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن، حتى إذا رويت بهجته عليه وكان رده الإسلام اعتره إلى ماشاء الله، أسلخ منه، ونبذ وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك». قال: قلت: يا نبي الله، أيهما أولى بالشرك: المرءى أو الرامى؟ قال: «بل الرامى». وإسناده جيد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ ءَخَذَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وٱتَّبَعُ هَوَاهُ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناها إياها ﴿وَلَكِنَّهُ ءَخَذَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مال إلى ريتة الحياة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من غير (٢) أولى

(١) هذه الفقرة ساقطة من المطبوع من «عمدة الضمير»، وأثبتناها من المخطوطة الأهرمية. (البار).

(٢) سقط كلمة «غير» من المطبوع من «عمدة الضمير»، وأثبتناها من المخطوطة الأهرمية. ولا يستقيم المعنى =

البصائر والنهي .

وقوله : ﴿فَمَثَلُ كَثَلٍ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكَهُ يَلْهَثُ﴾ قيل : معناه : فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه ، وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء ، كالكلب في لهيئه في حالتيه : إن حملت عليه وإن تركته ، هو يلهث في الحالين ، فكذلك هذا لا يتنفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه ؛ كما قال تعالى : ﴿سِوَاهُ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] ، ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] ، ونحو ذلك . وقيل : معناه : أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى ، فهو كثير الوجيب ، فعبر عن هذا بهذا ، نقل نحوه عن الحسن البصرى وغيره .

وقوله تعالى : ﴿فَالْقَصَصِ الْقَصَصِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ : يقول تعالى لبيه محمد ﷺ : ﴿فَالْقَصَصِ الْقَصَصِ لَعَلَّهُمْ﴾ أى : لعل بنى إسرائيل العالمين بحال بلعام ، وما جرى له في ضلال الله إياه وإبعاده من رحمته ، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه - في تعليمه الاسم الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب - في غير طاعة ربه ، بل دعا به على حزب الرحمن ، وشعب الإيمان ، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان ، كليم الله موسى بن عمران ، عليه السلام ؛ ولهذا قال : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أى : فيحذروا أن يكونوا مثله ؛ فإن الله قد أعطاهم علماً ، وميزهم على من عداهم من الأعراب ، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته ، كما أخبرتهم أنبياءهم بذلك وأمرتهم به ؛ ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكلمه فلم يعلم به العباد ، أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة .

وقوله : ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا﴾ : يقول تعالى : ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، أى : ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التى لا همة لها إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه ، واتبع هواه ، صار شبيهاً بالكلب ، وبش المثل مثله ؛ ولهذا ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «ليس لنا مثل السوء ، العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه» (١) .

وقوله : ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾ : أى : ما ظلمهم الله ، ولكن هم ظلموا أنفسهم ، بإعراضهم عن اتباع الهدى ، وطاعة المولى ، إلى الركون إلى دار البلى ، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى .

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

يقول تعالى : من هداه الله فإنه لا مضل له ، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة ، فإنه تعالى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ ولهذا جاء فى حديث ابن مسعود : «إن الحمد لله ، نحمله ونستعينه ونستغديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» . الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد ، وأهل السنن ، وغيرهم .

- يلوونها : (البار) .

(١) رواه أحمد والبخارى والترمذى والنسائى ، من حديث ابن عباس ، كما فى الفتح الكبير (٢ / ٦٥) . وهو فى المسند (١٨٧٢) .

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أي: خلقنا وجعلنا لجهنم ﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أي: هيئناهم لها، ويعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق، علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قَدَّرَ مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء». وفي صحيح مسلم عن عائشة أم المؤمنين، أنها قالت: دُعِيَ رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوي لي، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم». وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود: «ثم يبعث الله إليه الملك، فيأمر بأربع كلمات، فيكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد». وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فرقتين: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، قال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي». والأحاديث في هذا كثيرة، ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يعني: ليس يتفهمون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الاحقاف: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّيٌّ لَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، هنا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّيٌّ لَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، ولم يكونوا صمًا وبكماً وعمياً إلا عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿لَإِنَّمَا لَا تَمْنَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَمْنَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِبِحْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تتضع بهذه الحوامس منها إلا في الذي يقيتها من ظاهرها الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يُسْمَعُ إِلَّا دَعَاؤُهُ وَنِدَاءُ﴾ [البقرة: ١٧١] أي: ومثلهم - في حال دعائهم إلى الإيمان - كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول؛ ولهذا قال في هؤلاء: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي: من الدواب؛ لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أَسَّ بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء؛ ولأن الدواب تفعل ما خلقت له: إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر، كانت الدواب أتم منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

﴿ وَرَبِّهِ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْرَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر». أخرجه فى الصحيحين . وأخرجه الترمذى مثله، وزاد بعد قوله: «يحب الوتر»: هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلى، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى، المتين، الولي، الحميد، المحصى، المبدي، المعيد، المحيى، المميت، الحى، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقدر، المقترن، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالى، المتعالى، البر، التواب، المتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغنى، المغنى، المانع، الضار، النافع، الثور، الهادى، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور . ثم قال الترمذى: هذا حديث غريب وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة ، ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الاسماء إلا فى هذا الحديث . ورواه ابن حبان فى صحيحه، وقد رواه ابن ماجه عن أبى هريرة مرفوعا ، فسرذ الاسماء كتحو مما تقدم بزيادة ونقصان . والذى عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الاسماء فى هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانى، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أى: أنهم جمعوها من القرآن كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبى زيد اللغوى، والله أعلم .

ثم ليعلم أن الاسماء الحسنى ليست منحصرة فى التسعة والتسعين ، بدليل ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ ، أنه قال: «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحدا من خلقك، أو أنزلته فى كتابك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبى، ونور صدرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحا». فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ فقال: « بلى ، ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها ». وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستي فى صحيحه بمثله . وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العريى أحد أئمة المالكية فى كتابه: «الاحوذى فى شرح الترمذى» أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فآله أعلم .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ قال: إلحاد الملحدين: أن دعوا اللات فى أسماء الله . وقال مجاهد: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ قال: اشتقوا اللات من الله، واشتقوا العزى من العزيز . وقال قتادة: ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ يشركون فى أسمائه . عن ابن عباس: الإلحاد:

التكذيب . وأصل الإلحاد في كلام العرب: العُدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١٨١﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا﴾ أي: وبعض الأمم ﴿أُمَّةً﴾ قائمة بالحق، قولاً وعملاً ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، يقولونه ويدعون إليه ﴿بِهِ يَعْدِلُونَ﴾: يعملون ويقضون. وقد جاء في الآثار: أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية، هي هذه الأمة المحمدية. قال قتادة في تفسير هذه الآية: بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هذه لكم، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها»: ﴿وَمَنْ قَوْمٌ مَوْسَىٰ أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وعن الربيع بن أنس في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتي قوماً على الحق، حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل».

وفي الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة»، وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»، وفي رواية: «وهم بالشام».

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨٢﴾ وَأَمَلِي لَهُمْ إِنِّي كِيدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا، حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَحَمَلْنَا عَلَيْهِمُ أَمْوَابَ الْمَاءِ حَمَلَتُّمْ فَذُكِّرُوا بِمَا فَرَحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ. فَطَعَنَّا ذُيُوقَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمَلِي لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ﴾ ﴿إِنِّي كِيدِي مَتِينٌ﴾ أي: قوى شديد.

﴿أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٨٤﴾

يقول تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ يعني محمداً - صلوات الله وسلامه عليه ﴿مِّنْ جِنَّةٍ﴾ أي: ليس به جنون، بل هو رسول الله حقاً دعا إلى حق ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعي به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبِكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْرِئاً مُّفْرَدِينَ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦]، يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا قياماً خالصاً لله، ليس فيه تعصب ولا عناد ﴿مَشْرِئاً مُّفْرَدِينَ﴾ أي: مجتمعين ومتفرقين، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله: به جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك، بان لكم وظهر أنه رسول الله حقاً وصدقاً. وقال قتادة بن دعامة: «ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا، فدعا قريشاً فجعل يُمَحِّثُهُمْ فَحَنَّا فَحَنًا»: يا بني فلان، يا بني فلان، فحللهم بأس الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا مجنون. بات

يصوت إلى الصباح ، أو: حتى أصبح، فانزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جُنْدٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ .

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

يقول تعالى: أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا - في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض، وفيما خلق من شيء فيهما، فيندبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلصوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله واليم عقابه.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ ؟ يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب - بعد تحذير محمد وترهيبه، الذي آتاهم به من عند الله في آي كتابه - يصدقون، إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله، عز وجل؟

ثم قال تعالى:

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَسَاءَ هَادِيَ لَمْ يَدْرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

يقول تعالى: من كُتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزى عنه شيئاً ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١]، وكما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُفِي الآيَاتِ وَالنُّذُرِ عَنِ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْحِيهَا إِلَّا هُوَ نَقَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الاحزاب: ٦٣] فقيل: نزلت في قريش. وقيل: في نفر من اليهود. والاول اشبه؛ لان الآية مكية، فكانوا يسألون عن وقت الساعة، استبعاداً لوقوعها، وتكديباً بوجودها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الانبيا: ٢٣٨]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَجِيبُ لَهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ إِلَّا الَّذِينَ يَبْغُرُونَ فِي السَّاعَةِ لِي فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

وقوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ قال ابن عباس: «متهاها» أي: متى محطها؟ وأيَّان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة ؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْحِيهَا إِلَّا هُوَ﴾: أمر تعالى نبيه ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة، أن يردَّ علمها إلى الله تعالى؛ فإنه هو الذي يجليها لوقتها، أي: يعلم جليلة أمرها، ومتى يكون على التحديد، : لا يعلم ذلك إلا هو تعالى؛ ولهذا قال: ﴿نَقَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ . قال قتادة : نقل علمها على أهل السموات والأرض إنهم لا يعلمون. قال الحسن: إذا جاءت ثقلت على أهل

السموات والأرض، يقول: كَبُرَتْ عليهم . وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة. وقال ابن جرير: إذا جاءت انشقت السماء، وانتشرت النجوم، وكورت الشمس، وسيرت الجبال، وكان ما قال الله، عز وجل، فذلك ثقلها. واختار ابن جرير، رحمه الله: أن المراد: نُقِلَ علم وقتها على أهل السموات والأرض، كما قال قتادة. وهو كما قاله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْةٌ﴾، ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض، والله أعلم. وقال السدي: يقول: خفيت في السموات والأرض، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْةٌ﴾ قال: يبعثهم قيامها، تأتيهم على غفلة. وروى البخاري: عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرأها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يباعدانه ولا يطويانه. ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه. ولتقومن الساعة وهو يلبط حوضه فلا يسقي فيه. ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها». وروى مسلم عن أبي هريرة يبلغ به، قال: «تقوم الساعة والرجل يحلب لقمته، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة. والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم. والرجل يلوط حوضه فما يصلح حتى تقوم».

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: اختلف المفسرون في معناه، فقيل: معناه: كما قال ابن عباس: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يقول: كان بينك وبينهم مودة، كأنك صديق لهم. قال ابن عباس: لما سأل الناس محمداً ﷺ عن الساعة، سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم، فأوحى الله إليه: إنما علمها عنده، استأثر به، فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً. وقال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة، فأسر إلينا ستي الساعة. فقال الله، عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾. وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وأبي مالك، والسدي. هذا قول. والصحيح عن مجاهد قال: استخفيت عنها السؤال، حتى علمت وقتها. وكذا قال الضحاك، عن ابن عباس يقول: كأنك عالم بها، لست تعلمها ﴿فَلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾. وقال معمر عن بعضهم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: كأنك عالم بها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: كأنك بها عالم، وقد أخفى الله علمها على خلقه، وقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤]. وهذا القول أرجح في المعنى من الأول، والله أعلم؛ ولهذا قال: ﴿فَلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ولهذا لما جاء جبريل، عليه السلام، في صورة أعرابي، يعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: «فمتى الساعة؟» قال له رسول الله ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» أي: لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية. وفي رواية: فسأله عن أشراف الساعة، فبين له أشراف الساعة، ثم قال: «في خمس لا يعلمهن إلا الله». وقرأ هذه الآية وفي هذا كله يقول له بعد كل جواب: «صدقت»؛ ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقته، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم». وفي رواية قال: «وما أتاني

فى صورة إلا عرفته فيها، إلا صورته هذه. ولما سأل ذلك الاعرابى وناداه بصوت جهورى فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: «هازم»، على نحو من صوته، قال: يا محمد، متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك! إن الساعة آتية، فما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكنى أحب الله ورسوله. فقال له رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب». فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث. وهذا له طرق متعددة فى الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «المرء مع من أحب»، وهى متواترة عند كثير من الحفاظ المتقين.

ففيه أنه، عليه السلام، كان إذا سئل عن هذا الذى لا يحتاجون إلى علمه، أرشدهم إلى ما هو الأهم فى حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته؛ ولهذا روى مسلم عن عائشة، قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ، سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فينظر إلى أحدث أسنانٍ منهم فيقول: «إن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم». - يعنى بذلك موتهم الذى يفضى بهم إلى الحصول فى برزخ الدار الآخرة.

ثم روى مسلم عن أنس؛ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الساعة، وعنده غلام من الأنصار يقال له محمد، فقال رسول الله ﷺ: «إن يعش هذا الغلام فعسى ألا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة». انفرد به مسلم. وعن أنس بن مالك، أن رجلاً سأل النبی ﷺ قال: متى الساعة؟ فسكت رسول الله ﷺ هنيهة، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة، فقال: «إن عمر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة». - قال أنس: ذلك الغلام من أتربى. وروى عن أنس قال: مر غلام للمغيرة بن شعبة - وكان من أتربى - فقال النبی ﷺ: «إن يؤخر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة». - ورواه البخارى عن أنس؛ أن رجلاً من أهل البادية قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فذكر الحديث، وفى آخره: «فمر غلام للمغيرة بن شعبة»، وذكره. وهذا الإطلاق فى هذه الروايات محمول على التقييد بـ «ساعتكم» فى حديث عائشة. وعن جابر بن عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول قيل أن يموت بشهر: «تسالونى عن الساعة، وإنما علمها عند الله. وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة، تأتى عليها مائة سنة» رواه مسلم. وفى الصحيحين، عن ابن عمر مثله، قال ابن عمر: وإنما أراد رسول الله ﷺ انخرام ذلك القرن.

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود، عن النبی ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى، فتذاكروا أمر الساعة»، قال: «فردوا أمرهم إلى إبراهيم، عليه السلام، فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال عيسى: أما وجبتُ فلا يعلم بها أحد إلا الله، عز وجل، وفيما عهد إلى ربي، عز وجل، أن الدجال خارج»، قال: «ومعى قضيان، فإذا رأيت ذاب كما يذوب الرصاص»، قال: «فيهلكه الله، عز وجل، إذا رأيت، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتى كافرًا فتعال فاقتله». قال: «فيهلكهم الله، عز وجل، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم»، قال: «فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حذب يسئلون، فيطؤون بلادهم، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يبرون على ماء إلا شربوه»، قال: «ثم يرجع الناس إلى فيشكونهم، فادعوا الله، عز وجل، عليهم فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوى الأرض من نزع ريحهم - أى: تبتت - قال: «فينزل الله عز وجل المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر».

قال الإمام أحمد: قال يزيد بن هارون: ثم تنسف الجبال، وتمد الأرض مد الأديم - ثم رجع إلى حديث هشيم قال: فقيما عهد إلى ربي، عز وجل، أن ذلك إذا كان كذلك، فإن الساعة كالحامل الميم لا يدري أهلها متى تفجأهم بولادها ليلا أو نهارا . ورواه ابن ماجه ، نحوه ^(١) .

فهؤلاء أكابر أولى العزم من المسلمين، ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعمين، وإنما ردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام، فتكلم على أشراتها؛ لأنه ينزل في آخر هذه الأمة متفلاً لأحكام رسول الله ﷺ، ويقتل المسيح الدجال، ويجعل الله هلاك بأجوج ومأجوج بركة دعائه، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به .

وروى الإمام أحمد عن حذيفة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: «علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو، ولكن سأخبركم بمشاريطها، وما يكون بين يديها: إن بين يديها فتنة وهرجاً»، قالوا: يا رسول الله، الفتنة قد عرفناها، فما الهرج؟ قال بلسان الحبشة: «القتل». قال: «ويبقى بين الناس التناكر، فلا يكاد أحد يعرف أحداً». لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه. وعن طارق بن شهاب، قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرَأَاهَا﴾ الآية [التارعات: ٤٢]. ورواه النسائي وإسناده جيد قوى.

فهذا النبي الأمامي سيد الرسل وخاتمهم محمد، صلوات الله عليه وسلامه، نبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب والمُعقب، والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وقرن بين إصبعيه السابعة والتي تليها. ومع هذا كله، قد أمره الله تعالى أن يرُد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ غَيْبٌ أَحَدًا. إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ قال مجاهد: لو كنت أعلم متى أموت، لعملت عملاً صالحاً. وقال مثله ابن جرير. وفيه نظر؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة. وفي رواية: كان إذا عمل عملاً أثبتته. فجميع عمله كان على متوال واحد، كأنه ينظر إلى الله، عز وجل، في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم. والاحسن في هذا ما رواه الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ أي: من المال. وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، ولا يصيبني الفقر. وقال ابن

(١) المسند (٣٥٥٦) وابن ماجه (٤٠٨١). ورواه أيضا الحاكم في المستدرک (٤ / ٤٨٨، ٤٨٩، و٥٤٥، ٥٤٦)

وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجها» ووافقه الذهبي.

جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجذبة من المخصبة، ولوقت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص. وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم: ﴿وَمَا سُنِّي السُّوء﴾ قال: لاجتنب ما يكون من الشر قبل أن يكون، واتفقته.

ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير، أي: نذير من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُ بِلِئَالِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا حَفِيظًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَتَتْ اللَّهَ دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا لَيْنَ مَا آتَيْتَنَا صَاحِبًا وَتُكُونُ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَمَلًا لَهُ شُرَكَاءُ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٤﴾﴾

بنيه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم، عليه السلام، وأنه خلق منه زوجته حواء، ثم انشتر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ الآية [النساء: ١]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليألفها ويسكن بها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين؛ ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيدِهِ إلى التفرقة بين المرء وزوجه. ﴿فَلَمَّا تَفَشَّاهَا﴾ أي: وطنها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا حَفِيظًا﴾، وذلك أول الحمل، لا نجد المرأة له الماء، إنما هي النطفة، ثم العلقة، ثم المضة.

وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله. وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي. إنما هي: فاستمرت به. وقال ابن جرير: معناه: استمرت بالماء، قامت به وقعدت.

﴿فَلَمَّا أَتَتْهَا﴾ أي: صارت ذات ثقل بحملها. وقال السدي: كبر الولد في بطنها. ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا لَيْنَ مَا آتَيْتَنَا صَاحِبًا﴾ أي: بشراً سوياً، كما قال ابن عباس: أشفقاً أن يكون بهيمة. ذكر المفسرون هاهنا آثاراً وحديثاً ساوردها وأبين ما فيها، ثم تتبع ذلك ببيان الصحيح في ذلك، إن شاء الله وبه الثقة.

قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ قال: لما ولدت حواء طاف بها إبليس - وكان لا يعيش لها ولد فقال: سمّيه عبد الحارث؛ فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث، فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره. ورواه ابن جرير، ورواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر ابن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبد الصمد، ولم يرفعه. ورواه الحاكم مرفوعاً ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم مرفوعاً. وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه. والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه: أحدها: أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري، وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به. ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر، عن أبيه، عن الحسن، عن سمرة مرفوعاً، قاله أعلم. الثاني: أنه قد روى

من قول سمرة نفسه، ليس مرفوعاً، كما روى ابن جرير: حدثنا ابن عبدالاعلى، عن سمرة بن جندب ، قال: سمى آدم ابته «عبد الحارث». الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً، لما عدل عنه .

روى ابن جرير عن الحسن: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم . وقال الحسن: عنى بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده - يعنى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ . وكان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً، فهودوا ونصروا . أسانيدنا صحيحة عن الحسن، رحمه الله : أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ ، لما عدل هو ولا غيره عنه ، لا سيما مع تقواه الله وورعه، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل: كعب أو وهب بن منبه وغيرهما، كما سيأتى بيانه إن شاء الله ، إلا أننا برثنا من عهدة المرفوع، والله أعلم .

وأما الآثار فروى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لأدم، عليه السلام، أولاداً فيعبدهم لله ويسميهم: «عبد الله» و«عبيد الله»، ونحو ذلك، فيصيبهم الموت ، فأتاها إبليس وآدم فقال: إنكما لو سميتما بغير الذي تسميان به لعاش ، قال: فولدت له رجلاً فسماه «عبد الحارث»، فنيه أنزل الله، يقول الله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ إلى آخر الآية .

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه، كمجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة . ومن الطبقة الثانية: قتادة، والسدي، وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكأنه - والله أعلم - أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب، كما رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: لما حملت حواء أتاها الشيطان، فقال لها: أتطيعيني ويسلم لك ولدك؟ سمي «عبد الحارث»، فلم تفعل، فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك، فلم تفعل . ثم حملت الثالث فجاءها فقال: إن تطيعيني يسلم، وإلا فإنه يكون بهيمة ! فبهيهما فاطاعا .

وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»، ثم أخبرهم على ثلاثة أقسام: فمنها: ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله . ومنها ما علمنا كذبه، بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً . ومنها: ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته، بقوله، عليه السلام: «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» وهو الذى لا يصدق ولا يكذب ، لقوله: «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم». وهذا الأثر هل هو من القسم الثانى أو الثالث؟ فيه نظر . فأما من حدث به من صحابي أو تابعي، فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى فى هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته؛ ولهذا قال الله: ﴿فَقَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالاتسراد من ذكر الشخص إلى الجنس ، كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ الآية ، ومعلوم أن المصابيح - وهى النجوم التى

زينت بها السماء - ليست هي التي يُرمَى بها ، وإنما هذا استطراد من شخص المصاييح إلى جنسها ، ولهذا نظرنا في القرآن ، والله أعلم .

﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْتَجِيبُوا سِوَاهُ عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنزَلْنَا بِهَا آيَةً لَّهُمْ أَنبِئْ بِطِغْيُوشُونَ بِهَا أَمْ لَّهُمْ آيَةٌ أُخْرَى بَصُرُوتٍ بِهَا أَمْ لَّهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ إِلَهِي اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنظِرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربية مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تتصور ولا تعبر ولا تتصرف، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدها أكمل منها بمهمهم ويصرهم لعابديها، ولهذا قال: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أي: أشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك، كما قال تعالى: ﴿بِهَا أَنبَأَ النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاذْكُرُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِئُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤] ، أخبر تعالى أنه لو اجتمعت ألهمهم كلها ، ما استطاعوا خلق ذبابة ، بل لو سلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطارت، لما استطاعوا إنقاذه منها ، فمن هذه صفة وحاله، كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟! ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أي: بل هم مخلوقون مصنوعون ، كما قال الخليل: ﴿اتَّبِعُونِ مَا نَحْنُ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] .

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: لعابديهم ﴿وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ يعني: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْحَمِيمِ﴾ [الصافات: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ جَذَابًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل - وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة - فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للارامل، ليعتبر قومهما بذلك، ويرتوا لأنفسهم، فكان لعمر بن الجموح - وكان سيداً في قومه - صنم يعبده ويطيعه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخانه بالعبرة، فيجىء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيعه ويضع عنده سيفاً، ويقول له: «انصرت»!! ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذه مرة ففرنا معه جرو كلب ميت، ودلّياه في جبل في بئر هناك! فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، ثم أسلم فحُسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً، رضى الله عنه وأرضاه، وجعل جنة الفردوس مأواه.

وقوله: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءَ عَلِيكُمْ أَدْعَوْتَهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامُونَ ﴾. يعني: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحاما، كما قال إبراهيم: ﴿ مَا آتَىٰ لِم تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ [مریم: ١٤٢] ؟

ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها، أي: مخلوقات مثلهم، بل الاناسي أكمل منها، لأنها تسمع وتبصر وتبطلش، وتلك لا تفعل شيئا من ذلك.

وقوله: ﴿ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أي: استنصروا بها على، فلا تؤخروني طرفة عين، واجهدوا جهدكم! ﴿ إِنَّ إِلَهِي اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَعَوَّ بِقَوْلِي الصَّالِحِينَ ﴾ أي: الله حسي وكافيني، وهو نصيري، وعليه متكلي، وإليه الجأ، وهو ولي في الدنيا والآخرة، وهو ولي كل صالح بمعنى. وهذا كما قال هود، عليه السلام، لما قال له قومه: ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَابًا مِّمَّنْ بَدِئَهُمُ الْبَشَرُ لَئِنَّمَا لَآلِهَةٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ . إِنْ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦]، وكقول الخليل: ﴿ أَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يُهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٨٠]، وكقوله لاييه وقومه: ﴿ إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي إِنَّهُ لَرَبِّي سَتِيدٌ . وَجَمَلَهَا كَلِمَةٌ بَالِيَةٌ فِي عِلِّيَّهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ إلى آخر الآية، مؤكدا لما تقدم، إلا أنه بصيغة الخطاب، وذلك بصيغة الغيبة؛ ولهذا قال: ﴿ لَا يَسْتَعِينُونَ لَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾. وقوله: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ [فاطر: ١٤]. وقوله: ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾: إنما قال: ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي: يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة، وهي جماد؛ ولهذا عاملهم معاملة من يعقل؛ لأنها على صور مصورة كالإنسان، فقال: ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ فمير عنها بضمير من يعقل. وقال السدي: المراد بهذا المشركون وروى عن مجاهد نحوه. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير، وقاله قتادة.

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قال ابن عباس: قوله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ يعني: خذ ما عفا لك من أموالهم، وما أتوك به من شيء فخذ. وكان هذا قبل أن تنزل «براءة» بفرائض الصدقات وتفصيلها، وما انتهت إليه الصدقات. قاله السدي. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾: أنفق الفضل. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ قال: الفضل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾: أمره الله بالعفو، والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم. واختار هذا القول ابن جرير. وقال غير واحد، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ قال: أخلاق الناس وأعمالهم بغير تحميس. وقال هشام بن عروة، عن أبيه: أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وفي رواية قال: خذ ما عفا لك من أخلاقهم. وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ من أخلاق الناس. وفي رواية سعيد بن منصور، عن أبي الزبير: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ قال: من أخلاق الناس، والله لأخذنه منهم ما صحبتهم. وهذا أشهر الأقوال.

وقال البخارى : قوله : ﴿ خُذِ النُّفُورَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ «العرف» : المعروف . روى ان ابن عباس قال : قدم عيينة بن حصن بن حذيفة ، فتزل على ابن أخيه الحر بن قيس - وكان من النفر الذين يدينهم عمر - وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته - كهُولاً كانوا أو شياناً - فقال عيينة لابن أخيه : يابن أخى ، لك وجه عند هذا الأمير ، فاستأذن لى عليه . قال : سأستأذن لك عليه . قال ابن عباس : فاستأذن الحر لعيينة ، فأذن له عمر ، فلما دخل عليه قال : هى يا بن الخطاب ، فوالله ما تمطينا الجزل ، ولا تحكمن بيننا بالعدل !! فغضب عمر حتى هم أن يوقع به ، فقال له الحر : يا أمير المؤمنين ، إن الله قال لنبىه ﷺ : ﴿ خُذِ النُّفُورَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ . وإن هذا من الجاهلين ! والله ما جاورها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله ، عز وجل . انفرده بإخراجه البخارى . وروى ابن أبى جاتم : أن سالم بن عبد الله بن عمر مر على عير لاهل الشام وفيها جرس ، فقال : إن هذا منهى عنه ، فقالوا : نحن أعلم بهذا منك ، إنما يكره الجدلُ الكبير ، فأما مثل هذا فلا بأس به ! فسكت سالم وقال : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ . وقول البخارى : «العرف» : المعروف - نص عليه عروة بن الزبير ، والسدى ، وقتادة ، وابن جرير ، وغير واحد . وحكى ابن جرير أنه يقال : أولعه معروفًا ، وعارفًا ، وعارفة ، كل ذلك بمعنى : «المعروف» . قال : وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف ، ويدخل فى ذلك جميع الطاعات ، وبالإعراض عن الجاهلين ، وذلك وإن كان أمراً لنبىه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم ، لا بالإعراض عن جهل الحق الواجب من حق الله ، ولا بالصفح عن كفر بالله وجهل وحدانيته ، وهو للمسلمين حرب .

وقال بعض العلماء : الناس رجلان : فرجل محسن ، فخذ ما عفا لك من إحسانه ، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يخرجه . وإما مسىء ، فمره بالمعروف ، فإن تمادى على ضلاله ، واستعصى عليك ، واستمر فى جهله ، فأعرض عنه ، فلعل ذلك أن يرد كيده ، كما قال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِّةَ نَعْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ . وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٦ - ٩٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَسْوِي الْحَسَنَةَ وَلَا السَّبِّةَ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ لِإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَاقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى : هذه الوصية ﴿ وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت : ٣٤ - ٣٦] ، وقال فى هذه السورة الكريمة ايضا : ﴿ وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فهذه الآيات الثلاث فى «الاعراف» و«المؤمنون» و«حم السجدة» ، لا رابع لهن ، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصى من الإنس بالمعروف والتى هى أحسن ، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى ؛ ولهذا قال : ﴿ لِإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ . ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان ، فإنه لا يكفيه منك الإحسان ، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية ، فإنه عدو مبین لك ولايك من قبلك (١) .

قال ابن جرير فى تفسير قوله : ﴿ وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ ﴾ : وإما يُغْضِبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ غَضَبٌ يصدك عن الإعراض عن الجاهل ، ويحملك على مجاراته ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ ، يقول : قامتجر بالله من نزغه ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ سميع لجهل الجاهل عليك ، والاستعاذة به من نزغه ، ولغير ذلك من كلام خلقه ، لا

(١) انظر ما مضى عند الكلام عن الاستعاذة .

يخفى عليه منه شيء، عليم بما يذهب عنك نزع الشيطان، وغير ذلك من أمور خلقه.

وقد تقدم في أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تابا بحضرة النبي ﷺ، فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزج غضباً، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فقيل له، فقال: ما بي من جنون (١).

وأصل «النزع»: الفساد، إما بالغضب أو غيره، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِمَآذِي يَقُولُوا لِمَ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ بِنُزْعٍ بِهِمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، و«الميادة»: الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر، وأما «الملاذ» فصي طلب الخير، وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التيسير، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰغِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر، أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أى: أصابهم «طيف»، وقرا آخرون: «طائف»، وقد جاء فيه حديث، وهما قراءتان مشهورتان، وقيل: بمعنى ولحد. وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسّر ذلك بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب.

وقوله: ﴿فَتَذَكَّرُوا﴾ أى: عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده، فتابوا وتابوا، واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ أى: قد استقاموا وصحوا بما كانوا فيه.

وقد روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبي هريرة، قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف، فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يشفيني. فقال: «إن شئت دعوت الله فشفاك، وإن شئت فاصبري ولا حساب عليك». فقالت: بل أصبر، ولا حساب عليّ. ورواه غير واحد من أهل السنن، وعندهم: قالت: يا رسول الله، إني أصرع وأتكشف، فادع الله أن يشفيني. فقال: «إن شئت دعوت الله أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة؟» فقالت: بل أصبر، ولي الجنة، ولكن ادع الله إلا أتكشف، فدعا لها، فكانت لا تتكشف. وأخرجه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ أى: وإخوان الشياطين من الإنس، كقوله: ﴿إِنَّ الْمُبْدِيينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ أى: تساعدهم الشياطين على المعاصي، وتسهلها عليهم وتحسنها لهم. قال ابن كثير: المد: الزيادة. معنى: يزيدونهم في الغي، معنى: الجهل والسفه. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قيل: معناه: إن الشياطين تمد الإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك. كما قال ابن عباس في قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قال: لا الإنس يقصرون عما يعملون، ولا الشياطين تمسك عنهم. وقيل: معناه كما رواه العوفي، عن ابن عباس قال: هم الجن، يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ يقول: لا يسأمون. وكذا قال السُّلَبي وغيره: إن الشياطين يمدون أوليائهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم في الشر؛ لأن ذلك طبيعة لهم وسجية، لا تفتّر فيه ولا تبطل عنه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينِ عَلَى الْكَافِرِينَ فَوَزَّوْهُمْ أَزًّا﴾ [مریم: ٨٣] قال

ابن عباس وغيره: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجا.

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِمَّن رَزَقَكُمُ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لولا تلقيتها. وقال مرة أخرى: لولا أحدثها فأنشأتها. وقال مجاهد: لولا اقتضيتها، قالوا: تخرجها من نفسك. وكذا قال قتادة، والسدي، واختاره ابن جرير. قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: تلقيتها من الله تعالى. وقال الضحاك: يقول: لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ أي: معجزة وخارق، كما قال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْقَابُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ١١]، ويقولون للرسول ﷺ: ألا تعجد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها؟! قال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ أي: أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبع ما أمرني به فامتثل ما يوحى إليه، فإن بعث آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها؛ إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم.

ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات، وأبين الدلالات، وأصدق الحجج والبيات، فقال: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِمَّن رَزَقَكُمُ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة، أمر تعالى بالانصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان يعتد به كفار قريش المشركون في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما ورد في الحديث الذي رواه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فانصتوا»، وكذا رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة أيضاً، وصححه مسلم ولم يخرج في كتابه. وروى ابن جرير عن المسيب بن رافع، قال ابن مسعود: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة، فجاء القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١). وروى أيضاً عن يسير بن جابر قال: صلى ابن مسعود، فسمع ناساً يقرؤون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما أن لكم أن تفهموا؟! أما أن لكم أن تعقلوا؟! ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، كما أمركم الله (٢).

وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة، فقال: «هل قرأ أحد منكم معي آتفا؟!»، قال رجل: نعم يا رسول الله. قال: «إني أقول: ما لي أنازع القرآن؟!»، قال: فأنتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه رسول الله ﷺ بالقراءة من الصلوات، حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن». وصححه أبو حاتم الرازي.

(١) الطبري (١٥٥٨١). وإسناده منقطع بين المسيب بن رافع وابن مسعود.

(٢) الطبري (١٥٥٨٤). وروى فيه: «بشير بن جابر»، وهو تصحيف. وقد بينا صوابه في تلمة التخریج (٣/ ٥٨٦ رقم ٧).

وقال الزهري : لا يقرأ مَنْ وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعه صوته، ولكنهم يقرؤون فيما لا يجهر به سراً في أنفسهم، ولا يصلح لاحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سراً ولا علانية، فإن الله تعالى قال : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ .

قلت: هذا مذهب طائفة من العلماء: أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها، وهو أحد قولى الشافعى، وهو القديم ، كملعب مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة. وقال فى الحديث: يقرأ الفاتحة فقط فى سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً فى السرية ولا الجهرية، لما ورد فى الحديث: «من كان له إمام فقراءته قراءة له». وهذا الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده عن جابر مرفوعاً، وهو فى موطأ مالك ، عن جابر موقوفاً، وهذا أصح. وهذه المسألة مبسطة فى غير هذا الموضع ، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخارى مصنفاً على حدة ، واختار وجوب القراءة خلف الإمام فى السرية والجهرية أيضاً، والله أعلم.

وقال ابن عباس : قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ معنى: فى الصلاة المفروضة. وكذا روى عن عبد الله بن المغفل. وعن مجاهد قال: لا بأس إذا قرأ الرجل فى غير الصلاة أن يتكلم. وعن مجاهد قال فى هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ قال: فى الصلاة والخطبة يوم الجمعة. وكذا روى ابن جريج ، عن عطاء، مثله. وعن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ قال: الإنصات يوم الأضحى، ويوم الفطر، ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة. وهذا اختيار ابن جرير : أن المراد الإنصات فى الصلاة وفى الخطبة؛ كما جاء فى الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة. وعن مجاهد : أنه كره إذا مر الإمام بأية خوف أو بأية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئاً، قال: السكوت. وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله، كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة». تفرد به أحمد .

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَجِوْنَهُ وَلَمْ يَسْجُدُوا

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيرا ، كما أمر بعبادته فى هذين الوقتين فى قوله : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]. وقد كان هنا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية. وقال هاهنا بالغلو - وهو أوائل النهار ﴿وَالْأَصَالِ﴾: جمع أصيل، كما أن الأيمان جمع يمين.

وأما قوله: ﴿تَضَرَّعًا وَخِيفَةً﴾ أى: اذكر ربك فى نفسك رغبة ورهبة ، وبالقول لا جهراً، ولهذا قال: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾. وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداءً وجهراً بليناً، ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أتريد منا فتناجيه أم بعيد فتناجيه؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار، فقال لهم النبى ﷺ: «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا

تدعون أصمّ ولا غائباً؛ إن الذي تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته .
وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] ، فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سيّوه ، وسيبوا من أنزله ، وسيبوا من جاء به؛ فأمره الله تعالى ألا يجهر به ، لتلا ينال منه المشركون ، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعونهم ، وليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار . وكذا قال في هذه الآية الكريمة : ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ .

وقد زعم ابن جرير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله : أن المراد بهذه الآية : أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة ! وهذا بعيد مناف للإنصات للمأمور به ، ثم المراد بذلك في الصلاة ، كما تقدم ، أو الصلاة والخطبة ، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان ، سواء كان سرّاً أو جهراً ، فهذا الذي قالاه لم يتابعا عليه ، بل المراد الخض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال ، لتلا يكونوا من الغافلين ؛ ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ . وإنما ذكرهم بهذا ليتشبه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ؛ ولهذا شرع لنا السجود ها هنا لما ذكر سجودهم لله ، عز وجل ، كما جاء في الحديث : «الْأَلَا تَصْفُونَ كَمَا تَصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا ، يَتَمَوَّنُ الصُّفُوفَ الْأُولَى فَالْأُولَى ، وَيَتَرَاوُنُ فِي الصَّفِّ » .
وهذه أول سجدة في القرآن ، مما يشرع لتاليها وستمعها السجود بالإجماع . وقد ورد في حديث رواه ابن ماجه ، عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ أنه عدّها في سجّدات القرآن (١) .

(١) رواه - بنحوه - أحمد في المسند (١٠١ / ٥) ومسلم (١٢٧ / ١) كلاهما من حديث جابر بن سمرة .